ملامح السعادة في تربية الطفل على العبادة

إعداد

الدكتور عبد المجيد البيانوني

عضو رابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة
المشرف العلميّ على موقع الميثاق التربويّ

1426 هـ

الطبعة الأولى 1426 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قال الله تعالى :

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) } ابراهيم .

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) } إبراهيم .

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُــرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامــاً (74) } الفرقان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الوالدين المؤمنين ، اللذين يتطلّعان إلى أولادهم أن يكونوا قرّة أعين لهم في الدارين .

إلى الأسرة المسلمة التي عرفت هدف حياتها ، وغاية وجودها .

إلى أمّة الحقّ والهدى ، التي لا يضرّها من خالفها أو خذلها ..

أمّة العبادة

والقيادة والشهادة .

أهدي هذه المقالات نبراساً وذكرى ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل في كتابه المـــبين : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات ، والقائل أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر ، والصلاة والسلام الأتمّـــان الأكملان على ســيّد العابـــدين ، وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وسـيّد الخلق أجمعين ، القائل : (**أفَلا أكُـــونُ عَبـــداً شَكُوراً**) [1] ، وعلى آله وأصـــــــــحابه والتـابعين ، ومن تبعهم بإحسـان إلى يـوم الدين ، وبعد ؛

فإنّ أولويّةَ البدء بتربية الأطفال تفرض نفسها بصورة أكبر عندما نعلم أنّ الأطفال والناشئة يشكّلون من جهةٍ شريحةً واسعةً من المجتمع ، وهم من جهةٍ أخرى

1(?) ـ رواه البخـاري في كتـاب تفسـير القـرآن 4460 ، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار 5046 .

يشكّلون بقيّة الشرائح في المستقبل ..
ولاشكّ أنّ تأسيس التربية على أصولها الراسخة خير من إهدار القوى والطاقات في معالجة النتائج السلبيّة للإهمال والتفريط .

وأيّهما أولى بالاهتمام والتقديم : إعــداد أجيال صـحيحة النشـأة قويمة البنيـان ، أم بـذل الجهـود في إصلاح الراشـدين .؟ وإذا كــان كلا الأمــرين ضــروريّاً ، فــإنّ أولويّة التربية للأطفال والناشئين تفرض نفسـها ، لأنّ مسئوليّة الآبـاء والمـربّين عن تـربيتهم ورعـايتهم أكـبر وآكـد ، ولأنّ مَا يقـدّم لهم كالبـــذر في الأرض الطيّبة يحسُـــن نباته ، ويعظم خيره بإذن الله ، ويكثر ثمره .

وإنَّ التربية على العبادة من أعظم مقاصد التربية الإسلاميّة وأهدافها ، وهي تحتاج إلى عناية المربّي ورعايته ، وجهد مقصود منه ، يتعهّد به الطفل منذ نعومة أظفاره ، يحبّب له العبادة ، ويرغّبه بها ، ويشوّقه بحاله وقاله إلى اليوم الذي يكون فيه كبيراً ، فيؤدّيها مثل الكبار ..

وإنّ الخطأ الذي يقع فيه كثير من الآباء والأمّهات أنّهم لا يمهّدون للطفل سبيل العبادة منذ مرحلة مبكّرة ، حتّى إذا أصبح

في سنّ السابعة أمروه بالصلاة ، فرآها ثقيلة على نفسِه ، لأنّه لم يمهّد له السبيل إليها .

على أنّ خير تمهيد للطفل ما يراه من والديه صباح مساء ، ومن إخوته الكبار ومعلّميه ، من أدائهم للصلاة ، وحرصهم عليها ، واهتمامهم بها ، وكذلك سائر العبادات .

وفطرة الطفل السويّة خير ما يعين المربّي على تحبيبه بالعبادة وترغيبه بها ، " وإنّ القلبَ الإنسانيَّ دائمُ الشعورِ بالحاجةِ إلى اللهِ تعالى ، وهوَ شعورٌ أصيلٌ صادقٌ ، لا يملأُ فراغَه شيءٌ في الوجودِ ، إلاّ حسنُ الصلةِ بربِّ الوجودِ ، وهذا ما تقومُ بهِ العبادةُ ، إذا أُديَت على وجهِها ، فكيف بقلب الطفل ، الذي هو صفحة بيضاء نقيّة ؟.

وكلَّما أخلَصَ المرءُ العبوديةَ للهِ وجدَ نفسَه ، واهتدى إلى سرِّ وجودِه ، ووجدَ معَ ذلكَ سعادةً روحيةً لا تدانيها سعادةٌ ، تتمثلُ فيما سماهُ الرسولُ : " حلاوةَ الإيمانِ " [1] .

1(?) ـ من خطب الشيخ أحمد عزّ الدين البيـانوني رحمه الله المكتوبة .

والحـــــديثُ عن " أطفالِنَا والعبـــادة " حــديث للآبــاء والمــربّين بالدرجة الأولى ، لأنّهم هم القـــائمون على شـــئون الأولاد ، المكلّفون بتربيتهم ورعايتهم ..

وإنّه على قـــدر وعي الآبــاء والمــربّين بشـــئون التربية ومتطلّباتِها ينجحـــون في القيام بمسئوليّتهم وأدَائها على أحسَن وَجه .

وبعد ؛ فهذه مجموعة من المقالات في تربية الأطفــال على العبــادة ، أســأل الله تعالى بمنّه وفضله وكرمه ، أن تكون عونــاً للمــــربّي على تحـــبيب الطفل بالعبـــادة وتنشـــــئته عليها ، وأن ينفع بها ، ويتقبّلها منّي ، ويعظم لي بها الأجر والمثوبــة ، إنّه أكـــرم مســـئول ، وأرجى مـــأمول ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وصلّى الله وسـلّم وبـارك ، على عبـده ونبيّـه الأمّيّ ، الطـاهر الـزكيّ ، وعلى آله وأصــحابه ، ومن تبعهم بإحســان إلى يــوم الدين ، والحمد لله ربّ العالمين .

جدّة في 17/1/1426 هـ وكتبه

د. عبد المجيد البيانوني

[illegible]

أهمّ الأهداف التربويّة العامّة من العبادات

إنّ العبوديّة لله تعالى سمة تطبع الحياة الإنسانيّة من أوّلها إلى آخرها ، وفي كبير الأمور وصغيرها ، ومثلها كمثل الأوراق الرسميّة التي تتّخذها الوزارات والإدارات الحكوميّة ، تحمل صفتها ، وتذيّل بختمها ، فلا يشكّ أحد في نسبتها إليها .

1 ـ تحقيق العبوديّة لله تعالى ، وشكره على ما أنعم به وتفضّل .

2 ـ تهذيب النفس ، وتحقيق اتّصالها بالله سبحانه .

3 ـ تحقيق التوازن في شخصيّة الإنسان وسلوكه .

4 ـ تربية الإنسان على حسن الاتّصال بالجماعة والتعاون معها .

5 ـ اعتدَال صحّة الإنسان وسلامة جسمه .

6 ـ تهذيب الأخلاق ، وتربية الضمير على المكارم ، وغرس الشمائل الطيّبة .

7 ـ تقوية إرادة الإنسان ورفع همّته .

هنــاك بــدهيّات في التربية الإســلاميّة ينبغي ألاّ تغيب عن فكر كلّ مسـلم فضـلاً عن المربّي ، وأهمّها :

1 ـ لابـدّ من إشـاعة أركـان الإيمـان وحقائقه ، بـــــدلائلها وبراهينها بين العامّة والخاصّـــة ، بصـــورة ينتفي فيها الجهل ، ويعمّ العلم .

2 ـ لابـــدّ من تأســيس التربية على الإيمان بالله واليوم الآخر وحقائق الإيمــان وثمراته .

3 ـ ضرورة الربط بين الإيمـان والعمل الصالح ، فكما أنّ العمل بغير الإيمان هبـاء منثـور ، فـإنّ الإيمـان بغـير عمل شـجرة بدون ثمرة .

4 ـ الإيمان بأسماء الله تعالى وصـفاته هو الأصل الأكبر ، الذي تقوم عليه العقيدَة الحقّة ،

5 ـ لابدّ من اعتماد الوسائل الصـحيحة الفعّالة في غـرس الإيمـان وتعهّـده ، وألاّ يقوم ذلك على مجرّد التلقين والحفظ .

6 ـ ضـــرورة الربط بين الإيمـــان وحقائقه ، وبين علوم الكـون ودلائله الـتي لا تحصى ، على أركـان الإيمـان وحقائقـه وأسسه .

الأسرةُ العابدَةُ

الأســرةُ العابــدَةِ أمنية دعا بها الأنبيــاء والصـــالحون ، وتطلّع إليها المصـــلحون ، واشـــرأبّت إليها أعنـــاق المتّقين ، إذ إنّها تحقّق غاية الوجــود الإنســانيّ ، عــدا عمّا فيها من بقـاء الحـقّ يتسلسل في الأجيـال التالية ، يتوارثه الأبنـاء عن الآبـاء ، ويكـون سبب سعادة الأبنـاء في الآخـرة ، وعـزّهم وسيادتهم في الدنيا ، وهي مائدة ممــدودة ، وبـاب من الأجر والمثوبة مفتـوح للآبـاء ، بما يدعو لهم الأبنـاء ، ومَا كـانوا فيه سـبباً للخير والهدى ..

فقد وصف الله تعـــــالى بعض أنبيائه بقوله : { .. **وكانوا لنا عابدين** (73)ـ } الأنبيـــاء ، وصـــيغة الجمع تشـــير إلى ما يمثّلونه من أسـرٍ صـالحة قـام بنيانها على الإيمـــان بالله والحـــرص على مرضـــاته وتقــواه .. وحــدّثنا القــرآن عن خليل الله إبـراهيم عليه السـلام أنّه دعا ربّه : { **ربّ اجعلني مقيم الصلاة ، ومن ذرّيّتي ، ربّنا وتقبّل دعـــاء** (40) } إبـــراهيم . ووصف الله نبيّه إســماعيل عليه الســلام بقوله سبحانه : { وكان يأمر أهله بالصـلاة والزكـاة ، وكـان عند ربّه مرضـيّاً (55)ـ }

مريم . وجـاء في دعـاء عبـاد الـرحمن : { **والــذين يقولــون : ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين ، واجعلنا للمتّقين إماماً** (74) } الفرقان .

والعبـــادة لله تعـــالى مظهر التحقّق بالعبوديّة الصـادقة ، الـتي يشـكر الأنبيـاء الكـــرام ربّهم عليها ، ويتمنّى المؤمنـــون الصادقونَ أن تسـتمرّ في أولادهم وذرّيّتهم منْ بعـــدهم ، فمن دعـــاء ســـليمان عليْه السلام ، الذي قصّه علينا القرآن : { **قال : ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الـتي أنعمت عليّ ، وعلى والـــديّ ، وأن أعمــلَ صــالحاً ترضــاه ، وأدخلــني برحمتك في عبـــادك الصـــالحين** (19) } النمل ، وحـدّثنا القـرآن عن حـال الرجل الصالح ، كيف يـدعو ربّه ويرجـوه : { **قـــال : ربّ أوزعـــني أن أشـــكر نعمتك الـــتي أنعمت عليّ ، وعلى والديّ ، وأن أعمـلَ صـالحاً ترضـاه ، وأصـــلح لي في ذرّيّـــتي ، إنّي تبت إليك ، وإنّي من المسـلمين** (15)ـ } الأحقاف .

وأمر الله تعـالى المؤمـنين أن يـأمروا أهليهم بالصـلاة ويصـبروا عليها ، والصـلاة أهمّ العبـــــادات العمليّة ، وأرفعها درجة ومنزلة ، فقـــال تعـــالى : { **وأمر أهلك**

بالصلاة ، واصطبر عليها ، لا نَسـألك رزقـــــــاً ، نحنُ نرزقك ، والعاقبة للتقوى (132) } طه .

فالأسـرة العابـدَة أسـرة عـرفت غايتها في الحياة ، فـانْطلقت نحوها بهمّة عالية ، وعزيمة صـــادقة راســـخة ، لم تقف في طريقها عقبة ، ولم يثنها عنْ سبيلها شـيء ، لقد تحلّت بجلبــاب العبوديّة لله تعــالى ، فكـانت منـارة لأهل الأرض ، يمتـدّ فضـلها في كلّ باب من أبواب الخير والمعـروف ، وذكراً حسـناً في الملأ الأعلى في السـماء ، لا تعرف في حياتها عكراً ولا كدراً ..

الأســـرة العابـــدَة تعيش الانســـجام الأسريّ فيما بينها بأسْمى صوره ومعانيْه ، فهي كالجسد الواحد ، والـروح الواحـدة .. إنّها تعيش في حبّ ووئام ، وأمنٍ وسـلام ، وأنسٍ وبشر ، تتـــنزّل عليها السّـــكينة ، وتغشـــــــاها الرحمة ، وتحفّها الملائكة ، وتكلؤها بالليل والنهار ، والغـدوّ والآصـال ، ويغمرها الرضا والســــــعادة في جميع الأحوال .. وتقوم علاقاتها الاجتماعيّة كذلك على الإخلاص والنصح ، والاحترام والتقدير ، والشفقة وحبّ الخير ..

عرفت أنّ الحياة جـدّ ، ليست لعبـاً ولا عبثاً ، وأنّ هذه الـدار دار ابْتلاء ، فشـمّرت عن ساق العـزم والجـدّ ، ووفّت لله بالعهْد

، فجاءتها الـــدنيا خادمة راغمة ، ســـهلة ميسّــرة ، ونــالت سـعادة الآخــرة راضــية مرضيّة ، وعبّـاد الشـهوات حولها في غيّهم ســادرون ، وخوضــهم يلعبــون ، وشــكّهم يتردّدون ، يلهثون خلف السراب الكـاذب ، والبرق الخالب ، ويشقون في خدمة الدنيا آنـاء الليل وأطـراف النهـار ، ويفنـون فيها الأعمــار ، ثمّ يرحلــون عنها ، ولم يقضــوا منها لبانة ولا وطــراً ، فتشــتدّ نــدامتهم ، وتطول حسراتهم ، حيث لا ينفع الندم ، ولا تغــني الحســرَات ، ويتمنّــون العــودة إلى الــدنيا ، وهيهــات ! هيهـات ! لا يقبل منهم التمنّي والرجاء ..

الأســرةُ العابــدَةُ تهب المجتمع الأبنــاء الأسوياء النفّاعين ، الـذين لا يكونـون عبئـاً ولا بلاء ، يبشّرون ولا ينفّــرون ، ويجمعــون ولا يفرّقــون ، وييسّــرون ويرغّبــونَ .. فهي مصـــدر أمن المجتمع وطمأنينته ، وســـرّ نجاحه وسعادته ..

الأسرةُ العابدَةُ هبة الرحمن لمن صدق العهد ، وأخلص الـــودّ ، إنّها تقـــوم على دعــائم ، وتتميّز بمعــالم ، ودون الوصــول إليها مجاهدات ومكابدات ، ومحكّ الصــدق فيها الالتزام بالمنهج بلا عوج ، والاسـتقامة على الصــراط بلا تقصــير ولا شــطط ، لا

تنفع فيها الظنـون والأوهـام ، ولا الـدعاوى بغير برهـان ، يحظى فيها الآبـاء بالسـعادة العاجلة ، عنــدما تقــرّ أعينهم بأبنــائهم في هـذه الـدار ، ولـدار الآخـرة خـير للمتّقين الأبرار .

وما أروع تلخيص القـــــرآن الكـــــريم لمنهجها في بيانه المعجز ، ولفظه المـوجز ، بقوله تعـــالى : { .. **قُــوا أنفُسَــكُم وَأهلِيكُم نَــاراً** .. (6) } التحــريم ، إنّها أربع كلمــات ، جمعت حقــائق المنهج من أطرافها ، وأحكمت علاقاتها ، وشـــــادت بنيانها ..

الإســـلام حقيقة ضَـــخمة تملأ حيـــاة الإنســان كلّها ، وصــبْغة ربّانيّة يصــطبغ بها كيانه ، ومن أحسن من الله صبغة ، وصف الله تعالى بها أنْبيَاءَه ورسلَه ، وأثنى عَلَيْهم بتحقّقهم بها ، ودعـــــوة النـــــاس إليها ، ووصـــيّتهم بهَا، فقـــال تَعـــالى : { **وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الآخِــرَةِ لَمِنْ الصَّـــالِحِينَ** (130) **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (131) **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُـوبُ : يَـابَنِيَّ ! إِنَّ اللــهَ اصْـطَفَى لَكُمْ الــدِّينَ ، فَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** (132) **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَـوْتُ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَـالُوا : نَعْبُـدُ إِلَهَـكَ ، وَإِلَــهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ ، إِلَهـاً وَاحِداً ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ** (133) } البقرة .

والإســلام حقيقة كونيّة كــبرى ، تهيمن على الوجــود من أصــغر ذَرّة فيه إلى أكــبر

مجــرّة ؛ فكــلّ ما في الســموات والأرض عبد مُطيع لله ، خاضع لأمـــــره ، مُسَـــــبّح بحَمده ، لا يخرج عن طاعته ، ولا يستنكف عَن عبادته : { **أَفَغَيْرَ دِينِ اللـهِ يَبْغُـونَ .؟ وَلَــهُ أَسْــلَمَ مَنْ فِي السَّـــمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعـــاً وَكَرْهـــاً ، وَإِلَيْـــهِ يُرْجَعُونَ** (83) } آل عمران .

{ **تُسَـبِّحُ لَـهُ السَّـمَوَاتُ السَّـبْعُ وَالأَرْضُ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَـــيْءٍ إِلاّ يُسَـــبِّحُ بِحَمْــدِهِ ، وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَـانَ حَلِيمـاً غَفُوراً** (44) } الإسراء .

{ **ويُسَبِّحُ الرعدُ بحَمدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِن خِيفَتِهِ** .. (13) } الرعد .

والإســــــلام في حقيقته العمليّة هو الخضـــوع لله تعـــالى في كـــلّ شـــأن ، والاستســـلام لأحكَامه في كـــلّ موقف ، فالمسـلم الحـقّ يعْمل بـأمر الله تعـالى ، ويجتنب مَا نهى اللـهُ عنه ، ويخضع لأحكـام الله ، ويحتَكم إليه في جميع شئونه ، يقول الله تعـــالى : { **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـــونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِــدُوا فِي أَنفُسِــهِمْ حَرَجــاً مِمَّا**

قَضَـيْتَ ، وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً (65)ـ } النساء .

ويقول سـبحانه : { **إِنَّمَا كَـانَ قَـوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُــوا : سَــمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** (51) } النور .

وعلى هـذَا درج الصـحابة والتـابعون ، وسـلف هـذه الأمّة الصـالح ، فتخلّـوا عن أهوائهم وحظـوظ أنفسـهم لله ، وأطـاعوا الله ورســوله في المنْشــطِ والمكــره ، وفي العسر واليسر ، وتلقّــــوا الأوامــــرَ للتنفيذ ، وتَعلّمــوا العلمَ للعمل ، وحرصــوا على رضوان الله في كلّ موقف ..

فما أمــروا بشــيء إلاّ اســتَجابوا ، ولا نُهُوا عن شيء إلاّ اجتنبـوا ، وما نَـزل فيهم حكم منَ الله ورسوله إلاّ استَسلموا إليه مطيعين ، وَعملوا به راضين ..

أمــروا بالتوحيد ، فهَــدموا الأصــنام ، وعبدوا اللهَ وحده ، وتخلّـوا عن كـلّ مظهر من مظـــاهر الشــــرك بالله .. وفرضت عليهم الصـلاة فأقاموها ، وأمــروا بالزكـاة فأدّوها ، وبالإمســاك عن شــهوات النفس في الصيامِ فأمسَكوا ، وبالتجرّد لله تعـالى

في الهجـــرة والحجّ فتجـــرّدوا ، وبـــذل الأموال والأنفس في سبيل الله في الجهاد فتنافسوا في ذلك وبذلوا ..

ونهـــــــاهم الله عن الخمر فأراقوها ، وعن الفحشـــــــاء فاجتنبوها ، وعن الربا فــــتركوه ، وعن الميْسر فمنعــــوه .. لم يَعتـذروا عن شـيء من ذلك بما ألفـوه من عـــوج ، ولم يجـــدوا في امتثـــال الأمر ، واجتناب النهي من حرج ..

وفي سيرة سلف هذه الأمّة الصــالح ، جماعـات وأفــراداً ، وولاة ورعايا ، نمــاذج رائعة ، ومواقف مشــــرقة من ذلك كلّه ، تْشهد أنّهم كَانوا المثل الأعلى في الالـتزام الصادق بدين الله تعالى ، والتمسّك به في كلّ شَأن ..

ـ رأى رسـول الله خاتمـاً من ذهب في يد رجل ، فنزعه فطرحه ، وقـــال : (**يعمد أحــدكم إلى جمْـرة من نَــار ، فيجعلها في يده ؟!**) .

فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله : خــذْ خاتمك انتفع به ، قــال : لا والله ، لا آخذه ، وقَد طرحه رسول الله " [1] .

1(?) ـ رواه مسلم .

ـ ولمّا كـان يـوْم أحد ، أقبلت امـرأة تســعى ، حتّى كــادت أن تشــرف على القتلى ، فكره النبيّ أن تراهم ، فقال : (المرأة ! المـرأة) أي أدركـوا المـرأة ، ولا تتركوها تقـترب من القتلى ، شـفقة عليها ..

قـال الزبـير بن العـوّام : فتوسّـمْت أنّها أمّي صـفيّة ــ أي بلغها أنّ المشْـركين قتلوا أخاها حمزة ، ومثّلوا به ، فهي تريد أنْ تراه ..

قال الزبَير : فخـرجت أسـعى إليْها ، فأدركتها قبل أن تنتهيَ إلى القتلى ، فلــدمَت في صــدري ، أي دفعتــني دفعــاً شـديداً ، وكـانت امـرأة جلـدة ــ أي قوّية شديدة ـ وقـالت : إليك عنّي لا أرض لك .! فقلت : **إنّ رسـول الله عــزم عليك أن لا تذهبي** .. **قال : فوقفَت** .. [1] .

ـ وتخلّف كعب بن مالك وصــاحباه عن غزوة العسرة بغير عذر ، فنهى رسول الله المســلمين عن كلامهم ، فما كلّمهم أحد طيلة أربعين يومــاً .. ثمّ أمــرهم بعد الأربعين أن يعتزلوا نسـاءهم ، فـاعْتزلوهنّ عشـرة أيّـام ، وتحمّلـوا هجـرَ المسـلمين

1(?) ـ رواه أحمد وأبو يعلى والبزار .

خمسين يومـاً ، وضـاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضـــاقت عليهم أنفســـهم ، حتّى تاب الله عليهم ، ففرحوا بذلك أشدّ الفرح ، وفــرح بهم المســلمون ، وأقبلــوا عليهمْ يكلِّمونهم ، ويهنّئونَهم بتوبة الله تعالى ..

هكــذا كــان انقيَـاد ســلف هــذه الأمّة الصالح لأمر الله تعـالى ، وأمْر رسـوله ﷺ ، عملــوا بالإســلام كَـاملاً ، فقطفــوا ثمــاره يانعة ، عزّةً وسيادةً ورفعَة ..

والإســلام الــذي عــزّ به المســلمون الأوّلونَ دين شامل لحيـاة الإنْســان ، كامل تامّ .. لم يترك جانبـاً من جـوانب الحيـاة ، من عقيــدَة وعبــادات ، وتشــريع وأخلاق ، وسياسة واقتصاد ، واجتماع وعمران ، وما يتّصل بـذلك ، وما يتفـرّع عنه إلاّ ووضع له المنْهجَ الحكيم ، والخطّةَ الرشيدة ..

راعى الإسـلام جـانب الـروح ، فشـرع لها عبـادات تغـذّيها وتزكّيها ، وتصـلهَا بربّها تبارك وتعالى ، وتسمو بها ..

وراعى الإسـلام جـانب الجسد ، فـأمر بالعناية به ، ورعاية غذائه وكســـــــائه ، ونظافته وصـــحّته ، ومصـــالحه وحاجاته ، ونهَى أن يحمّلَ ما لايطيق ، وحــرّم كـلّ ما يؤذيه ، منْ طعام وشراب ، وجرحٍ وقتل ..

ووثّق روابط الأســرة : فــأوجب بــرّ الوالــدين ، وصــلة الأرحَــام ، وبــنى كيــان المجتمع على دعــــــائم قويّة من الأخلاق الكريمة ، والسيرة المستقيمة ، فندب إلى التحابّ والـتراحم والتعـاطف ، والمواسـاة والإيثار ، والإحسَان وإغاثَة اللهْفان ..

وأمــــرَ بالصــــدق والأمانة ، والنصح والاســتقامة ومعــالي الأمــور ، ومَكــارم الأخلاق ..

وأحْكم الصــلة بين الــراعي والرعيّة ، بما أوجبه من الطاعة لـوليّ الأمر في غـير معصـية ، والشـعور بالمسـئوليّة ، والسـهر على مصَالح الأمّة ..

وأمر الإسـلام بالوفـاء بالوعد ، وحفظ العهْد ، حتّى مع غير المسلمين ..

فالمسـلم الحـقّ يلـتزم بدينه في كـلّ شـأن ، ويتحلّى بفضـائل الإسـلام كلّها ، بلا إفـراط ولا تفريط .. فلا يوغل في جـانب ، ويهمل جانبـاً آخر .. لا ينْصـرف إلى جـانب الــروح ، فيَلــزم المســجدَ والعبـادة مثلاً ، ويهْمل جــانب الجسد ، فيقعد بغــير عمل وكسب للرزق ممّا أحلّ الله ..

والمســلم الحــقّ ابن ديْن ، وابن دنيَا : متعبّد بالليل ، فــارس بالنهــار ، زاهد في

الـــــدنيا بقلبه ، عامل لها بقالبه ، ملتمس لمرضـــاة الله تعـــالى في كـــلّ شـــأن .. لا تشـــغله دنيَا عن دين ، ولا روْح عن جسد ، ولا عَمل فرديّ عن عمل اجتماعيّ ، يخدم الأمّة ، ويحرص على تقـديم ما يعـود عليها بالخير والنفع ..

هذا هو الإسلام في حقيقته ومجْمله .. إنّه هوّيّة المسلم وانتمـاؤه ، ومَصـدر عزّته وسـعادته ، والبدهيّة الكـبرى الـتي تقـوم عليها حياته ، فـــأيْنَ المســـلمون منها .؟! وأيْن منها أبنـاءُ المسـلمين .؟! الفاقـدونَ لهـوّيّتهم وانتمـائهم ، المفتونـون بسـراب التيه والتغريب .؟!

إنّ على الآبـــاء والمـــرَبّين مســـئوليّة عظيمة ، أن يورّثوا الأبناءَ الإسـلامَ بحقيقته الشـــاملة الكاملة ، وأنْ يملئـــوا قلـــوبَهم بمحبّته وصـــدق الـــولاء له ، وأنْ يعلّمـــوهم أنَّهم من خـــير أمّة أخـــرجت للنـــاس ، فليذكروا نعمةَ الله عليهم ، وليؤَدّوا شـــرطَ الخيريّة والاجتباء ..

إنّ على الآبـــاء والمـــرَبّين أن يورّثـــوا أبنـــاءَهم الاعـــتزاز بالإســـلام ، والتمسّـــكَ بمبادئه وقيمه والحـــرص على نصـــرته ،

والــدعوة إلى ســبيله ، ليعــودَ لهــذه الأمّة عزّها الذاهب ، ومجدها الغابر ..
ويــوْمَ يخــرج جيْلٍ من أبنَــاء الإســلام كذلكَ فارتقب عـزّاً للأمّة وسـيَادة ، ورفعة وريادة .. ويقولون متى هــوَ .؟ قل : عسى أن يكونَ قريباً ..

* أثر الإيمان بالآخرة في تحقيق السعادة للفرد والأسرة والمجتمع

إنّ عقيـدة الإيمـان بـالآخرة هي أعظم أساس لسعادة الإنسـان في حياته الفرديّة والأســـريّة والاجتماعيّة ، وهي أصل جميع فضائل الإنسان وكرامته وكمالاته . ولننظر في بيان ذلك بشيء من التفصيل فنقول :

ـ إنّ الأطفــال الــذين يمثّلــون نصف البشريّة تقريبـاً لا يمكنهم أن يتحمّلـوا تلك الحالات التي تبدو أمـامهم مؤلمـةً مفجعـةً من حـالات الأمـراض الشـديدة ، والمـوت وفـراق الأحبّة إلاّ بما يجدونه في أنفسـهم وكيـانهم الغضّ الرقيق من القـوّة المعنويّة ، الناشــئة عن الإيمــان بــالآخرة والجنّة .. ذلك الإيمــان الــذي يفتح لهم بــاب الأمل المشـرق أمـام طبـائعهم الرقيقة الـتي لا تتمكّن من المقاومة والصـــــمود ، وتبكي لأدنى سبب .. فيتمكّنون بالإيمـان بـالآخرة من العيش بهناء وفـرحٍ وسـرور .. فيحـاور الطفل نفسه ، أو يحاوره والده أو المـربّي : " **إنّ أخـــاك الصـــغير أو صـــديقك الحميم الـذي تـوفّي قد أصـبح الآن طيراً من طيور الجنّة .. وهو يسـرح**

الآن في الجنّة حيث يشـاء ، ويعيش أفضل من حياته هنا وأهنأ .. وستراه بإذن الله عندما تنتقل إليها .. " .

ولولا هذا الإيمـان بالجنّة لهـدم المـوت الذي يصيب أطفالاً أمثاله ، وكذلك يصـيب الكبار تلك القـوّة المعنويّة لهـؤلاء الـذين لا حيلة لهم ولا قـــوّة ، ولحطّم نفســيّاتهم ، ودمّر حيــاتهم ونغّصــها ، فإمّا أن تمــوت أحاسيسهم ، وتغلظ مشاعرهم ، أو تحطّم نفسـيّاتهم ، وتشـوّه شخصـيّاتهم ، وتـدمّر حيـــاتهم ، ويصـــبحوا عناصر في المجتمع مشلولة العزيمة والإرادة ..

فيا أيّها الوالد المربّي .!

حـدّث طفلك عن الآخـرة والجنّة بما يتناسب مع ســــــنّه ومداركه ، فـذلك خـير ما يعـدّه لتحمّل شـدائد الحياة ولأوائها .

ـ والشباب المراهقـون الـذين يمثّلـون محور الحياة الاجتماعيّة وعمودها الفقريّ ، لا يهـدّئ فـورة مشـاعرهم وسـورتها ، ولا يمنعهم من تجـــاوز الحــــدود إلى الظلم والتخــــريب ، والعبث والفوضى ، ولا يمنع طيش أنفسهم والانطلاق وراء نزواتها ، ولا

يـدفعهم إلى السـير الأفضل في علاقـاتهم الاجتماعيّة إلاّ الخـــوف من نـــار جهنّم ، وغضب الله تعــالى ونقمته .. ولــولا هــذا الخوف لقلب هؤلاء المراهقون الطائشون الثملون بأهوائهم ، وغرور قوّتهم وعافيتهم .. لقلبـــوا الـــدنيا إلى جحيم من الشـــرّ والفوضى ، والبغي والأذى ، ولحوّلـــــوا الحيـــاة الإنســـانيّة الكريمة إلى حيـــاة حيوانيّة سـافلة ، تعجّ بالشـرّ والفسـاد ، وكـانوا شـرّاً على أنفســهم ومجتمعهم والإنسانيّة كلّها ..

ـ والشيوخ والعجائز الذين أدبرت عنهم مبـاهج الـدنيا ومتع الحيـاة ، وأصـبحوا كـلّ يـوم من أيـام حيـاتهم القليلة الباقية على موعد مع الآلام والأمـــراض والمفاجــآت ، ويحسّــون بــالاغتراب عن الــدنيا ، وأنّهم ينتقلون من ضعفٍ إلى ضـعف ، ويقـتربون من قبـورهم رويـداً رويـداً ، إنّهم أحـوجُ ما يكونون في مثل هـذه الحـال إلى الشـفقة والرحمة ، والطمأنينة والسكينة ، والشعور بالحيـــــاة الهادئة الهانئة .. لقد عـــــادوا كالأطفال في ضعف القوّة وفتـور الإرادة ، مـــرهفي الحسّ والشـــعور ، قد ضـــاقت عليهم الدنيا بما رحبت ، وربّما تمــادى بهم

وضـــعف النفس والقـــوى إلى درجة من المرض واليـأس لم يعـودوا معها يطيقـون البقاء في هذه الحياة ، فيفكّرون بالانتحــار ، للتخلّص ممّا هم فيه من حـــال .. ولكنّ الإيمـان بـالآخرة ، وما عند الله تعـالى من النعيم والتكريم ، وجزاء المؤمنين المتّقين ، يــأتي على أرواحهم كالبلسم الشــافي ، فيقــوّي رجــاءهم بالله تعــالى ، ويســمو بأرواحهم عن هذه الـدنيا المـدبرة الفانية ، ويوطّد علاقتهم بالآخرة المقبلة المزدهــرة ، ويعقد آمـــالهم بالله تعـــالى ، فيقـــوى تعلّقهم بالله ســبحانه ، وتـــوكّلهم عليه ، وحسن ظنّهم بفضـــله وكرمه ، وجـــوده وإحســانه ، وهو القائل ســبحانه كما في الحديث القدسيّ : " **أنا عند ظنّ عبـدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ..** " .

ـ والأســرة الــتي هي دائــرة الفــرد وحصـنه الحصـين ، ومحـور المجتمع وركنه المتين ، لا سعادة لأحــدٍ فيها إلاّ بــالاحترام الجادّ المتبادل ، والوفـاء الـودود ، والمحبّة الصادقة ، والرحمة الدائمة والمودّة ، التي يلقاها من الطــــرف الآخر .. ولا أمل في ذلك إلاّ أن تقـوم على علاقة إيمانيّة تتّصل بالله تعــالى ودينه وشــرعه بــأوثق العــرا

وأزكاها ، وأجملها وأســـــماها ، وأن تتّصل بـــــالآخرة دار النعيم المقيم ، والجـــــزاء العظيم ، فيحـــــدّث الـــــزوج نفسه : " إنّ زوجـــتي هـــذه رفيقة حيـــاتي ، وســـتكون زوجـــتي في عـــالم الخلد والأبد ، فلا ضـــير عليها إن أصبحت الآن عجـوزاً ضـعيفة ، ما دامت تـــزداد بالله إيمانـــاً وعملاً صـــالحاً ، فإنّها تســـتوجب منّي كـــلّ رعاية وتكـــريم ، ووفاء ورأفة .. " وتحـدّث الزوجة نفسـها : " إنّ زوجي هـــذا رفيق حيـــاتي ، وســـيكون زوجي في عـــالم الخلد والأبد ، فلا ضـــير عليه إن أصبح اليوم شيخاً كبـيراً ضـعيفاً ، ما دام يـــزداد إيمانـــاً بالله تعـــالى وعملاً صـــالحاً ، فإنّه يســـتوجب منّي كـــلّ رعاية وتكريم ، وخدمة وعناية ، ووفاء ورأفة .. " وهكـذا لا تـزداد العلاقة بين الـزوجين على تطاول الأيّام والسنين إلاّ وثوقـاً ورسـوخاً .. بخلاف أولئك البهائميّين الذين لا يعرفون العلاقة الزوجيّة إلاّ علاقة جنسيّة شـــهوانيّة ، فإذا ضعف أحد الطرفين أو مـــرض تخلّى عنه الطـــــــرف الآخر ، وتنكّر له ، وذهب يبحث عن سبل أخرى لقضاء لذّاته ونزواته ، ونسي ما كان يدّعي من المحبّة والمودّة .. وربمّا كـان من أحد الطـرفين من البغي

على الطــرف الآخر والغــدر به ، ما تأبــاه الحيوانات العجمـاوات ، وتـأنف عنه .. إنّها الأنانيّة القاتلة التي تفرضها الحيــاة المادّيّة ، الــتي لا تعــرف حيــاة الــروح ولــذّتها وأشـواقها ، بل إنّها تحاربها ، ولا تـؤمن بها ..

وهكـذا ترشح سـعادة الحيـاة الأسـريّة على علاقة الــــرحم والقرابة ، وتتضـــوّع أنسام المودّة والرحمة في أرجـاء المجتمع المســــــــلم وأنحَائه ، وتتقلّب الأمّة في بحبوحة الســـــــــعادة الوارفة وظِلالها ، ونسمات الجنّات ورياضِـها ، وتِلـكَ عاجل سـعادة المؤمـنين في هـذه الحيـاة ، قبل الانتقــال إلى الــدار الآخــرة وما فيها من النعيم والتكريم ..

أفليس في هـــذه الحيـــــاة الكريمة المطمئنّة ما يقـــدّم للعقلاء ذوي الألبـــاب والبصـائر دليلاً على الحيـاة الآخـرَة أشـبه بالدليل المادّيّ المحسـوس .؟! { **إنّ في ذَلِـكَ لَـذِكرَى لمَن كَـانَ لَه قَلبٌ ، أو ألقَى السمعَ وَهُو شَهِيدٌ** (37) } ق .

فليلق الســـمعَ علمــــاءُ الاجتمـــاع والسياسة والأخلاق ، من المعنيّين بشـئون الإنسان وأخلاقه واجتماعه ، وليبيّنوا لنا :

بماذا سيملأون هذا الفراغ القاتل .؟

وَمَاذا قدّموا لإسعاد الإنسان ، وإنقــاذه من شقوته وحلّ مشكلاته .؟

وماذا ينتَظـرون من البلاء الـداهم على البَشريّة .؟!

وبماذا سيداوون هـذه الجـروح الغـائرة العميقة ، التي لا تزداد مع الأيّام إلاّ تقيّحــاً وعمقاً .؟!

* الإسلام شريعة الحنيفيّة السمحَة

الإســـلام هوّيّة المســـلم وانتمـــاؤه ، والبدهيَّة الكـبرى الـتي تقـوم عليها حياته ، ولكنّها في الـــــــوقْت نفسه هوّيّة غَائبة أو مغيّبة ، وبدهيّة مجهولة أو مشوّشة ، عنـــدَ كثـير من المسـلمين الـذينَ أخـذوا دينهم بالوراثة والتقليد ، ســـوَاء على مسْـــــتوى الفهم ، أو على مســــــتوى الســــــلوك والممارسة .. وكـــذلك عنـــدَ أولئك الـــذين يقفون منْ دين الله موقفَ الرفض للاحتكـام إليه ، والعـــداوةِ له والصـــدّ عنه .. ومن ثمّ فـــإنّ حقيقة الإســـلام وهوّيّته بحاجة إلى توضـيح مفْهومَها وتعميقه ، وتبـيين معانيها وتفصـيلها ، وكشف ما يعارضـها ، ويخـرج عن حدودها وحقيقتها ، ليهلك من هلك عن بَيّنة ، ويحيا منْ حيَّ عن بيّنة ..

ـ فالإسلام هو الديْن الذي ارتضاهُ الله للبشـريّة منْ لـدن آدم عليه السـلام ، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمّد : { **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ** .. (19) } آل عمران ، { **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْـرَ الإِسْـلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِـرَةِ مِنْ الخَاسِرِينَ** (85) } آل عمران .

ـ **وحقيقة الإسـلام** : الاستسـلام لأمر الله تعالى ونهيه ، وطاعته في شئون الحياة كلّها ، يقول الله تعالى : { **وَإِذْ أَخَذَ اللـــهُ مِيثَـــاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ**

كِتَـابٍ وَحِكْمَـةٍ ، ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَـــدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُـــؤْمِنُنَّ بِـــهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ ، وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْـرِي ، قَـالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَـــالَ : فَاشْـــهَدُوا ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ (81) **فَمَنْ تَـوَلَّى بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِـقُونَ** (82) **أَفَغَيْـرَ دِينِ اللـهِ يَبْغُـونَ ، وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، طَوْعـاً وَكَرْهـاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** (83) } آل عمران .

ولا تُقْبَـــلُ دعـــوَى الإيمـــان بغـــير الاستسـلام لحكْم الله ورسـوله ﷺ ، والرضا بكـلّ ما جـاء عن الله ورســوله ﷺ : { **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـــجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِـــدُوا فِي أَنفُسِـــهِمْ حَرَجـــاً مِمَّا قَضَـــيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** (65) } النساء .

إنّ الاجتهـاد ســاحته كبـيرة مفتوحة ، لمن كـــان أهلاً له ، ولكنّه لا يـــدْخل في القطعيّـات ، والبـدهيّات المسـلّمات ، إنّه يدخل في كلّ ما لا يضرّ اختلاف التنوّع فيه ، وما يختلف الموقف منه على حسب اختلاف العـادات والأعـراف ، لأنّه بُـنيَ في الأصل على العــرف والعــادة ، وما كـــان سبيله كذلك يغيّره العرف والعادة ..

وإذا لم يسلم الإنسان وجهه لله وهو محسن ، ويستجيب لطاعته واتّباع شرعه .. فلمن يستجيب .؟! ما البديل له عن ذلكَ .؟!

لقد عرفت الإنسانيّة بدائل كثيرة توجّه الإنسان إليها بالحبّ والرجاء ، والخوف والرهبةِ .. فهل كانت خيراً للإنسان من توجّهه إلى الله وحدَه .؟!

لقد عبد الإنسان الخارج عن طاعة الله الحجر والشجر ، والشمس والقمر ، وتذلّل للحيوان والجماد ، وأتفه الأشياء وأسخفها وأخسّها ، ممّا يُستحيا من ذكره ، وتَأباه كرامته .. ومنهم من ألحد في الله وعبد هواه ، أو عبد الطواغيت ، وأهواء الظالمين الكُبراء .. فهل أغنى ذلك عن الإنسان شيئاً ، أو حقّق له سعادة وأمناً .؟!

إنّ مزايا هذا الدين وخصائصه أكثر وأضخم من أن يتناولَها مقال ، أو يحيطَ بها بحث ، ولكنّ هناك مزيّة كبرى ، ينبغي أن لا يغفل الوالد والمربّي عن غرسها وتعهّدها والتأكيد علَيها ، وهي أنّ الإسلام شريعة الحنيفيّة السمحَة ، كما جاءَ نصّ ذلك في الحديث عن (**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلا بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**) [1] .

1(?) ـ رواه أحمد في المسند في باقي مسند الأنصار برقم / 21260/ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ .

" فهيَ حنيفيّة في العقيدة ، سمحة في التكاليف والأحكام ، وإنّما خصّها الله بالسمَاحة والسهولة واليسر لأنّه أرادها رسالة للناس كافّة ، والأقطار جميعاً ، والأزمان قاطبة ، ورسالة هذا شأنها من العموم والخلود ، لابدّ أن يجعل الله الحكيم في ثناياها من التيسير والتخفيف والرحمة ما يلائم اختلاف الأجيال ، وحاجات العصور ، وشتّى البقاع "[1] .

وإذا كانت وجهة الإسلام التيسير ورفع الحرج ، فكلّ من يبغي التشديد والتعنّت ، إنّما يعاند روح الإسلام ، ومآله إلى هلاك وبوار ، وقد دعا عليه النبيّ بذلك ، فقال : (**ألا هلك المتنطّعون .! ألا هلك المتنطّعون .! ألا هلك المتنطّعون .!**)[2] ، قالها ثلاثاً ، ليدلّ على اهتمامه بخطر هذا الأمر وآثاره السلبيّة على دين الله تعالى ..

وجاء في الحديث عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مرفوعاً : (**إيّاكم والغلوّ .! فإنّما أهلك من قبلكم الغلوّ**)[3] .

1(?) ـ العبادة في الإسلام ، للدكتور يوسف القرضاوي ص/ 195/ .
2(?) ـ رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود .
3(?) ـ رواه مسلم .

وكان من شمائله الكريمة : " أنّه مَا خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثمـاً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عنه " [1] .

وعنـــدما بعث معـــاذ بن جبل ، وأبا موسى الأشــــعريّ أمـــــيرين إلى اليمن أوصاهما بقوله : (**يسّـرا ولا تعسّـرا ، وبشّـــرا ولا تنفّـــرا ، وتطاوعا ولا تختلفا**) [2] .

ويحذّر النبيّ أمّته من مَغِبّة التشــديد على النفس بغــير ما كلّف الله به عبـــاده فيقول : (**لا تشدّدوا على أنفسكم ، فيشـدّد عليكم ، فـإنّ قومـاً شـدّدوا على أنفسهم ، فشــدّد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والــديار** : { .. **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَـــدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَـاءَ رِضْـوَانِ اللــهِ فَمَا رَعَوْهَا حَـقَّ رِعَايَتِهَا** .. (27)ـ } الحديد [3] .

قــال الإمــام الحافظ ابن كثــير رحمه الله : " وهذا ذمّ لهم من وجهين : أحــدهما : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله ، والثـاني : في عـدم قيـامهم بما الـتزموه ،

1(?) ـ رواه البخاريّ .
2(?) ـ رواه البخاريّ .
3(?) ـ والحـديث ذكـره ابن كثـير في تَفسـيْر الآية الكريمـة ، عن مســند أبي يعلى ، وهو في كتــاب الأدب من ســنن أبي داود : باب في الحسد ، انظر العبادة في الإسلام ص/197/ .

ممّا زعمـوا أنّه قربة تُقَـرّبهم إلى الله عـزّ وجلّ " .

" وقوله : (لا تشـدّدوا يشـدّد عليكم) إخبَار بأنّ تشديد الإنسان على نفسه سبب لتشـــــديد الله عليه . وتشـــــديد الله إمّا تشْريعيّ تكليفيّ ، وإمّا تشديد كوْنيّ قدريّ وفقاً لنظَام الله في الأسبَاب والمسبّبات ، فالتشديد بالشرع ، كمن يشدّد على نفسه بالنــذر الثقيل فيَلزمه الشــرع الوفــاء به . والتشـــديد بالقَـــدر ، كفعل أهل الـــتزمَّت والوسوسة ، شدّدُوا على أنفسهم ، فشـدّد القــدر عليهم ، حتّى اســتحكم ذلك فيهم ، وصار صـفة لازمـة لهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم " [1] .

فعلى الوالد والمربّي أن يَغـرسَ هـذه الحقـــــــائق في نفس الطفل والناشئ ، ويتعهّـــدها بالتوجيه والرعاية ، ويؤكّد عليها في كلّ مناسبة ، لينشأ الطفل نشأة سويّة ، بعيداً عن الغلوّ والتطرّف ، يأخذ من دين الله بما كلّف الله به عباده دون تنطّع ، ولا تشديد ..

1(?) ـ العبادة في الإسـلام ، للـدكتور يوسف القرضـاويّ ص/ 198/ .

من أحكام الحنيفيّة السمحة

التكــاليف الإلهيّة كلّها أمانــات ، يكلّف الإنســان بحسن رعايتها ، وسيُســأل عنها يــوم القيامة ، ووجه عــدّها أمانــات : أنّها تشْـــترك مع الأمانة المادّيّة المعروفة في وجــوب المحافظة عليها كما هي ، وعــدم التغيير أو التبديل في شــيء منها ، وأدائها متى طلبها صاحبها ، كاملة غيرَ منقوصة ، وأن يراعي المكلّف الأحوال الخاصّــة لها ، كما يريد الله تعـــالى من عبـــاده ، وكما يحبّ الله تعالى ويرضى ..

وَإذ كــانت التكــاليف الإلهيّة أمانــات ، فهي ثقيْلة على النفس شديدة ، وَإذ كانت شريعة الله تعـــالى حنيفيّة ســـمحة فهي ميسّرة على كلّ مكلّف لا حرج فيهــا ، ولا إعنـــات ، ولا تكليف فيها فـــوق الطاقة ، وهذا ما يطبع شريعة الله كلّها ويميّزها ..

وإذا أردتُّ أن أقدّم نمَاذج عن ســماحة أحكــام الشريعَة لضــاق بي رحب القــول والـوقتِ والورق ، ولكنّــني ألمح إلماحـات سريعة إلى بعضـها ، وقبل أن أقـدّمَ بعض

الأمثلة أحبّ أن أذكّرَ ببعض القواعد الأساسـيّة ، والحقـائق المهمّة في هـذا الباب ، وهي ممّا امتنّ الله به على عبـاده ، ومن خصائص هذا الدين ومزاياه :

1 ـ شمول التيسير ورفْع الحرج جميع جوانب الشريعة وأبوابها ، وعدم اقتصـاره على جانب دون آخر ، والنصّ القـرآنيّ : {.. هو اجتبـاكم ، وَمَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (78) } الحج ، يشـمل الدين كلّه .

2 ـ ليس في شـريعتنا تحـريم شـيء من الطيّبات عقوبة للناس ، كما كان ذلك في شرائع سابقة ، لظروف خاصّة .

3 ـ إنّ الله يحبُّ أن تُـؤتَى رُخصُـه ، كما يكره أن تُؤتَى معْصيته .

4 ـ الأصل في التكـاليف الإلهيّة أنّها معقولة المعـنى ، بيّنة الحكم والأهـداف والمقاصد .

5 ـ أنّ التكليـف الشـرعيّ يـدور مـع الوسع والاستطاعة وُجوداً وَعدماً .

فمن النماذج فيدين الله على التيسير ورفع الحرج :

1 ـ مشروعيّة قصر الصلاة ، والجمع بين الصلاتين في السفر .

2 ـ مشروعيّة التيمّم ، عند فقد المــاء ، أو العجز عن استعماله .
3 ـ صـــلاة المـــريض على حسب استطاعته .
4 ـ بنــاء أحكــام الطهــارة ، والحكم بالنجاسة على اليقين ، والتيســـــير ورفع الحرج .
5 ـ مشــروعيّة المسح على الخفّين ، وعلى العصابة والجبيرة .
6 ـ الترخيص في الفطر في رمضــان للمريض والمسافر ، والمرضع والحامل .
7 ـ لا تكليف بـــالحجّ مع عــــدم الاستطاعة ، وهي القــدرة الماليّة والبدنيّة .
8 ـ التيســير في المعــاملات الماليّة ، وقيامها على تحقيق المصــالح الشــرعيّة الحقيقيّة للمكلّفين ، ودفع المفاسد عنهم ، والتيسير ورفع الحرج .
9 ـ والقاعــدة العامّة في دين الله أنّ الأصل بــراءة الذمّة ، والأصل في الأشــياء الإباحة .
10 ـ ومن أعظم مــا تتجلّى فيه رحمة الإســلام وتيســيره ، ورفعه للحــرج عن العبــــاد : ما شــــرع من أحكام للرفق والرحمة بالنســــاء ، إذ لم يكلّفهنّ الله تعــالى بقضـَاء ما يفــوتهنَّ من صــلوات

بســـبب الحيض أو النفـــاس ، بينما كلّفن بقضـاء الصـيام ، لأنّه لا يتكـرّر كالصـلاة ، ورخّص لهنّ بالفطر في رمضان في حـال الحمل أو الرضاع ، إذا خفن على أنفسهنّ ، أو الطفل أو الجنين ، كمـا كفل الإسـلام لهنّ العيش الكريم بما أوجب على الرجل من النفقة على المـــرأة ، ولم تكلّــــفْ بالنفقة على الرجل ولَو كانت غنيّة .

وعلى قَـدر ما يفقه الإنســان دين الله وشــرعه يــزداد يقينــاً وبصــيرة أنّ هــذه الشريعة مبناها على التيسير على العباد ، ورفع الحــرج عنهم ، فلا يرضى التشــديد على نَفسِه ، ولا على أحدٍ من عبــاد الله ، إذ ليس في التشـــــديد مزيدُ تقـــــوى أو اسـتقامة ، وإنّما هــو التنطّع الــذي يقــود صــاحبه إلى الغلوّ ، وقد نهى النــبيّ ﷺ عن ذلك أشدّ النهي فقال : (هلك المتنطّعون) قالها ثلاثاً [1] ، وقد قام هدي النبيّ ﷺ في كلّ شـأن من الشـئون على اختيـار أيسـر الأمرين مَا لم يكنْ إثمـاً ، فـإذا كـان إثمـاً كان أبعد الناس عنه .. [2] .

وكــان ﷺ يــأمر بــالرفق ، ويحثّ عليه ، وينهى عن العنف ، وينفّر منه ، ويقـول : (

1(?) ـ رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود ﷺ .
2(?) ـ رواه البخاريّ 6/419 و 420 ، ومسلم برقم /2327/ .

إنّ الرفق ما وضع في شــــــيء إلاّ زانه ، وما نزع من شيء إلاّ شانه) [1] .

فعلى الوالد والمرَبّي أن يغــــرس في نفس الطفل والناشئ هذا الفهم لســماحة الإســلام فيما شـــرع من التكــاليف الإلهيّة والأحكام ، وأنّها في طاقة المكلّف ووسعه ، ولا يقصد بها إرهاقه ولا إعناته ، وإنّمــــا هي ســرّ إصــلاح الحيــاةِ الإنســانيّة ورقيّها وتهذيبها ، وهي سرّ سعادة الفــرد وفلاحــه في الدنيا ، وفوزه ونجاته في الآخرة ..

ومن ثمّ فليس من تقـــــوى اللــــــه والتمسّــــــك بدينه أن يشقّ المكلّف على نفسه ، ويكلّفها ما لا طاقــــــــةَ لها به .. ويظنّ أن ذلك يقرّبه إلى الله أكـثر : { مَا يَفْعَـلُ اللـهُ بِعَـذَابِكُمْ إِنْ شَـكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً (147) } النساء .

1(?) ـ رواه مسلم برقم /2594/ .

لماذا بُني الإسلام على هذه الأركان الخمسة .؟

إنّه سؤال قَد يَرد على فكر الإنسـان فلا يَعلم له جَوابــاً ، وحـــدّثني بعض الإخـــوة المعلّمين أنّه سـئل هـذا السـؤال من قبل بعض طلاّبه ، فلم يسـتطع أن يقـدّم الإجابة المقنعة المناسبة .. والحَقّ أنّه هذه الأركان الخمسة أركـان جامعة للـدين كلّـه ، وكـلّ ركن منها بمثابة بـاب من أبوَاب الإسـلام ، مَن دخله دَخل إلى جـانب منْ هـذا الـدين وأحكامه وآدابه ، ومن عطّله عطّل جانبـــاً من الدين بمَا فيه من أحكام وآداب ..

فإعلان الشهادتين أصلٌ لأركان الإيمــان ، ومَا يتّصل بهَا منْ حقائق الإيمان القَلبيّة ، من حبّ الله وَخشـــــــيته ، والإنابة إليه والتوكّل عليه ، والخــوف منْــه والرجَــاء ، والشوق والرضا ، وما أشْبه ذلك ..

وركن الصـــــــلاة أصل عَمليّ لتحقيق الصلة بين العبْد وربّه ، وعبادة الله تعـالى ، الــتي هي حَــقّ العبوديّة على العبــاد : أنْ يعبـدوا الله ولا يشركوا به شَـيئاً ، والصـلاة هي الترجمة العملِيّة لـــــركن الشهَادتين ، ومن ثمّ فقَد كانتْ عماد الدين ، مَن أقَامها

فقدْ أقَـام الـدين ، ومن هـدمها فقد هـدم الدين .. ويـدخُلُ في الصـلاة ، وجـزء منها : الذكر والدعَاء وتلاوة القرْآن ..

وركن الزكـاة أصـلٌ لتَحقيق الصلَة بيْن الإنسان وأخيه الإنسَان ، وهي الصـلةُ الـتي أراد لها الإسـلامُ أنٍّ تقـوم على المـودّة والرحْمة ، والتعَاطف والتعَـاون ، وأن يحبّ المؤْمن لأخيه المـؤمن ما يحبُّ لنفسه ، ويكـره له مَـا يكْـره لنَفسِـه ، وأنْ يشـعرَ بحاجات المسْلمين ، ويسعى في مَصالحهم ، ويؤدّيَ حقوقَهم ، ويكفّ الأذى عنهم ..

وركن الصـوم أصلٌ لتهْـذيب النفس وتربية الضـمير ، ورقيّ الـروح ، وإعطائها حقّها من العبادة ، وذوق لذّة الطاعة ، وهو أصل لهذه المعاني ، كما أنّه يتّصل بحقائق الإيمان اتّصالاً وثيقاً ؛ فرمضان شهر الصبر ، وشهر الشكر ، وترقّي المؤمن في معارج التقوى .

وهـذه الأركـان الثلاثة تجمع من جهـةٍ أخـرى أنـواع الحقـوق ، الـتي تتّصل بحيـاة الإنسـان ؛ فحـقّ اللـه على الإنسـان يتمثّل بالصلاة ، وحقّ الإنسان على أخيه الإنسـان يتمثّل بالزكاة ، وحقّ الإنسان على نفسـه ، أو حقّ نفسه عليه يتمثّل بالصوم ..

وركن الحجّ يعدّ عبــادة جامعة ، ففيــه التنسّــك والتعبّد ، والــذكر والــدعاء ، بما يشبه الصلاة ، وفيه بذل المـال وإنفاقه في سبيل الله ، بما يشبه الزكاة ، وفيه تهـذيب النفس ، ورقيّ الـــروح بما فيه من صـــلة بالله تعالى ، وتجرّد عن الــدنيا وما فيها بما يشــبه الصــيام .. ويزيد الحجّ عن ذلــك كلّه أنّه عبـادة على مسـتوى الأمّـة كلّهـا ، وهـو أصل للجهاد في سبيل الله تعالى واجتمــاع المؤمـنين على نصـرة دينهم ، وفعل الخير، والتعاون على البرّ والتقوى ..

وفي كلّ ركن من هذه الأركان حظّ ممّا في الأركـان الأخـرى ، ولكنّ الجـانب الـذي أشــرت إليــه أبــرز فيها من غــيره وأظهر ؛ فالصــلاة فيها تواصل بين المؤمــنين ، كما في صــلاة الجماعة ، وفيها تهــذيب للنفس كما أشـــار إلى ذلك قوله تعـــالى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّــلاةَ ، إِنَّ الصَّــلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَــاءِ وَالمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللـهِ أَكْبَـرُ ، وَاللـهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) ﴾ العنكبوت .

والزكاة فيها الصلة بالله تعـالى ، إذ هي عبـادة تـؤدى بنيّـة التقـرّب إلى الله تعـالى وابتغاء مرضاته ، وفيها جانب نفسـيّ ، وهو تطهير نفس المـزكّي ، كما أشـار إلى ذلك

قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم ، وتزكّيهم بها .. ﴾ التوبة .

والصيام فيه الصلة بالله تعالى ، إذ هو عبادة خفيّة عن الخلق ، تؤدى بنيّة التقرّب إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته ، وفيه الصلة بالآخرين ، إذ يصوم المؤمن مع الناس ، ويفطر معهم ، فيحسّ بانتمائه للأمّة ، وحال إخوانه من الفقراء والمساكين ، فتمتدّ يده بالإحسان إليهم ..

وأهمّ النتائج التي نخلص إليها أنّ من أتقن هذه الأركان ، وأدّاها بأحكامها وحدودها ، وسننها وآدابها أتقن إسلامه كلّه ، وكانت عوناً له على ذلك ، ومن فرّط بواحد من هذه الأركان ، فقد فرّط بأنواع كثيرة من الصالحات التي تدخل تحتها ، وعرّض إسلامه للخطر .. فمن الخطأ البيّن أن يظنّ ظانّ أنّ الخلل ينحصر في الركن الذي يترك أو يقصّر فيه فحسب ، وإنّما كلّ ركن من هذه الأركان يتّصل به من بناء الإسلام وأحكامه ما يشدّ عراه ، ويوثّق أجزاءه .. فأتقن أخي المؤمن هذه الأركان ، بشروطها وأركانها ، وواجباتها وسننها ، وحكمها وآدابها ، تكن عوناً لك على إتقان إسلامك ، وسرّ سعادة أيّامك ..

وفي ظــلّ هذا الفهم لأركــان الإســلام الخمسة ، وعلاقتها بأحكام الشريعة كلّهـا ، ينبغي أن نفهم الأحاديث النبويّة الشريفة ، الـــتي تؤكّد على أهمّيّة التمسّــــك بهـــذه الأركان ، وأنّ من أقامها دخل الجنّة ، ونجا من النــــار ، ومنها ما جــــاء في الحــــديث الصحيح عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْـدِ اللـهِ قـال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ مِنْ أَهْلِ نَجْـدٍ ، ثَائِرُ الرَّأْسِ ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَـوْتِهِ ، وَلا نَفْقَـهُ مَا يَقُولُ ، حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَـةِ ، فَقَـالَ : هَـــلْ عَلَيَّ غَيْــرُهُنَّ ؟ قَـــالَ : لا ، إِلاّ أَنْ تَطَّوَّعَ ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَقَالَ : هَــلْ عَلَيَّ غَيْــرُهُ ؟ فَقَــــالَ : لا ، إِلاّ أَنْ تَطَّوَّعَ ، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ الزَّكَاةَ ، فَقَالَ : هَـلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : لا إِلاّ أَنْ تَطَّوَّعَ ، قَالَ : فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ، وَلا أَنْقُصُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللـهِ : أَفْلَحَ إِنْ صَـــدَقَ) . وفي رواية عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : (أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَـدَقَ ، أَوْ دَخَـلَ الجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ) [1] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /12/ .

فعلى الآبــاء والمــربّين أن يلاحظوا في تربية الأطفـال على هـذه الأركـان الخمسة ارتباطها الوثيق بأحكام الإسلام كلّهــا ، كيْلا نـــرى ســـلوك الناشئ في مســـتقبل أيّامه يعاني من التنــاقُض الصارخ بين موقفه من هذه الأركـان ، وسـلوكه ومواقفه من سائر الأحكام ..

علوّ الهمّة في العبادة

الإسلام يربّي المسلم على علوّ الهمّة في كلّ شيء من أمر الدين أو الدنيا ، وعُلوّ الهمّة يقتضي أن يحرصَ المؤمن على حسن العمل وكماله ، والرغبة بفعله في أوّل وقته ، والاجتهاد في تجويده وإتقانِه ، كما يحرص على الاستزادة منه ، فيما يقبلُ الاستزادة ، ويأخذ بالعزيمة في أغلب أحواله .

ومن أهمّ ميادين ذلك : العبادة بمفهومها الخاصّ والعامّ ، وحياة المؤمن وعمره كلّ ميدان رحب للعبادة .. والمسلم الفاقه بدينه يوازن دائماً بين الفضائل ، ويختار أرجحها في ميزان الله ، وأحبّها إليه سبحانه .

وعلوّ الهمّة في العبادة لا يخرج المسلم عن التوازن والاعتدال ، وتقديم الأهمّ على المهمّ ، وترجيح المصالح العليا على ما دونها .. كمَا أنّ الاجتهاد في العبادة لا يعني الغلوّ في الدين ، وفرق بين المفهومين بعيد .

ومنْ يطالع حياة الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان يجد نمَاذج لا تحصى

كثرة وعدّاً من شغفهم بالعبادة ، واجتهادهم فيها ، وعلوّ هممهم في الأخذ من كلّ غنيمة من أبواب العبادات بسهم ، فمن نماذج ذلك ما روي عن الحارث بن مالك الأنصاريّ أنّه مرّ بالنبيّ فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً ، قال : انظر ما تقول ، فإنّ لكلّ قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك .؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأنّي أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة ، يتزاوَرُون فيها ، وكأنّي أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارثة ! عرفت فالزم) [1] .

وعن أنس أنّ النبيَّ لقيَ رجلاً يقال له : حارِثَةُ ، في بعضِ سِككِ المدينةِ ، فقالَ : كيفَ أصبحتَ يا حارثةُ ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقّاً ، قالَ : إنّ لِكلِّ إيمانٍ حقيقةً ، فما حقيقةُ إيمانِكَ ؟ قالَ : عزفَتْ نفسِي عن الدنيا ، فأظمأتُ نَهارِي ، وأسهرتُ ليلي ، وَكأنّي بعَرشِ رَبّي بارزاً ، وكأنّي بأهلِ الجنّةِ في الجنّةِ ، يَتنَعّمُونَ فيها ، وكأنّي بأهلِ النارِ في النارِ ، يُعذّبُون ،

1(?) ـ رواه الطبراني في الكبير ، وفيه ابن لهيعة .

فقال النبي : أصبتَ فالزم ، مُؤمنٌ نَوّرَ اللهُ قلبَه) [1] .

وعنْ أنسٍ قال : أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهُوَ غُلامٌ ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ . فَقَالَ : وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ ! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ) [2] .

ومن توازن المسلم وعلوّ همّته في العبادة أن يحسن الجمع بين نوافل العبادات بمفهومها الخاصّ ، وبين الواجبات الاجتماعِيّة ، وهي من شعب العبادات بمفهومها العامّ ..

إذ كثيرـ من الناس عندما يولع بنوع من العبادة بمفهومها الخاصّ يهمل أنواعاً أخرى من العبادات بمفهومها العامّ ، وقد تكون في حكم الواجبات الكفائيّة ، فهي أرجح منزلة ممّا يولع به من نوافل الأعمال .

ومن أروع النماذج في حياة الصحابة عن ذلك ما جاء في الحديث الصحيح عَنْ

1(?) ـ رواه الــبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به ، كما قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد 1/57 .
2(?) ـ رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /3683/ .

أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليَوْمَ صَائِماً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِيناً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضاً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : (مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلا دَخَلَ الجَنَّةَ) [1] .

فانظر إلى علوّ همّة أبي بَكر كَيف جمع فِي يوم واحد بين هذه الفَضائل والأعمال الصالِحة ، ولم تَمنعه فضيلة عن أخرى ، كما لم يحرص على باب من أبواب الخير ، ويزهد في غيره ، كما يفعل بعض الناس .

لقد كان أصحاب رسول الله رهباناً بالليل ، فرساناً في النهار ، أصحاب همم رفيعة في عبادة الله ، والتقرّب إليه بما يحبّ سبحانه ، ولم يفهموا العبادة على نوع وَاحد من أنواعها أو مجالاتها ، وإنّما ضربوا في غنيمة كلّ بسهم ، وكان لهم في كلّ باب سبق ، فكانوا خيرَ هذه الأمّة بعد نبيّها ، وأسوة حسنة للناس منْ بعدهم .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة 1707 .

فعلى الوالدين والمربّين أن يحبّبوا الأطفال بالعبادة ، ويغرسوا فيهمْ علوّ الهمّة فيها ، والحرْص على أن تؤدّى على أحسن وجوهها ، وألاّ يَقْتصرَ اجتهادهم على نوْع واحد منها ، ليكونوا من العابدين الذين ينالُهم مدح الله تعالى وثناؤه في محْكم كتابه ، وليرَ منهم الطفْل في ذلك كلّه الأسوة الحسنة له ، التي تؤثّر في عقله وقلبه وسلوكه ما لا تؤثّره الكلمات وأبلَغُ المواعظ ..

* الإيمانُ والعبَادة .!

الإيمـــان هبة إلهيّة كريمة ، تمْنحُ العبد القـوّةَ والعزيمـةَ ، والسـعادةَ والسـكينةَ ، وراحةَ القلب والطمأنينة .. والعبادة مظهَرُ الإيمـان وعُنوَانُه ، وروحُه وحقيقتُه وبرهانُه ، وهو الـدافع إليها ، البـاعث القـويّ على الاجتهــاد فيها ، والحـــرص عليها .. وكمَا لا يُتصوّر للإنسان وجود بغير روحه وجسـده ، فكذلك لا يتصوّر للإيمان وجود بغير العبادة ، بمفهومهَا الشامل الجامع ..

وإنّ مَن يتــدبّر كتــاب الله تعــالى يجد أنّ الله جلّ وعلا ربط بين الإيمـان والعمل الصـالح في كــلّ مناســبة ، فلا يــذكر الــذين آمنــوا إلاّ ويعقبهم وصـفُ : " وعملـوا الصـالحات " ، ولا يـــذكر الإيمــــان إلاّ وتربط به بعض الأعمـــال الصالحة ، وقد تكـرّر ذلك في القـرآن أكـثر من خمســين مــرّة ، ممّا يؤكّد هــذه الحقيقة ، ويقدّم لها أوضحَ برهان ..

وقد جـــــاء ذكر العمل الصـــــالح في القرآن الكريم مطلقـاً بغـير قيد ، ليشـملَ كــلّ عمل قــام بِه الإنســان وفق دين الله تعــالى وشــرْعه مُبتغيــاً بــذلك وجــهَ الله ومرضاته ، يقول الله تعالى : { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ ، وَأَقَـامُوا الصَّلاةَ ، وَآتَوْا الزَّكَـاةَ ، لَهُمْ أَجْـرُهُمْ**

عِنْــدَ رَبِّهِمْ ، وَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (277) } البقرة .

وهنا يجتمع مفهــوم العبــادة في دين الله تعـالى بسـعته وشـموله ، مع مفهـوم العمل الصـالح ، ويحـقّ للإنسـان أن يجـزم أنّهما مترادفان ..

والإيمان والعمل الصـالح شَـرط لنفي الحـرج والجنـاح ، على المـؤمن فيما يأكل ويشـربُ ، ممّا أحـلّ الله وأبـاح لعبـاده ، يقـول الله تَعـالى : { **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ جُنَـاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ، إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَـوْا وَآمَنُـوا ، ثُمَّ اتَّقَـــوْا وَأَحْسَـــنُوا ، وَاللـــهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (93) } المائدة .

وأهل الإيمـــــان والعمل الصـــــالح موعـودون من الله بـالتمكِين في الأرض ، كما يقـول تعـالى : { **وَعَـدَ اللــهُ الَّذِينَ آمَنُــوا مِنْكُمْ وَعَمِلُــوا الصَّــالِحَاتِ ، لَيَسْـــــــــتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْـــــــــتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَـــــى لَهُمْ ، وَلَيُبَــدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْــدِ خَــوْفِهِمْ أَمْنـــاً ، يَعْبُــدُونَنِي لا يُشْـــرِكُونَ بِي**

شَـيْئاً ، وَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ (55) } النور .

وهمْ موعودون بتكفير السـيّئات ، وأن يجـــزيَهم الله أحسن الجـــزاء ، كما يقـــول تعـــالى : { **وَالَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَـيِّئَاتِهِمْ ، وَلَنَجْـــزِيَنَّهُمْ أَحْسَـــنَ الَّذِي كَـــانُوا يَعْمَلُونَ** (7) } العنكبوت .

وهم قلّة في النـــاس نَـادرة ، كما هي المعادن النفيسة الثمينة : { ... **إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيـــلٌ مَا هُمْ** .. (24) } ص .

وهم مَحـــــــلّ عناية الله ورعايته ، إذ يخرجهم في الدنيا مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ ، ويـــدخلهم في الآخـــرة جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، كما يقول تعـــالى : { **رَسُـــولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَـــاتِ اللـــهِ مُبَيِّنَـــاتٍ ، لِيُخْـرِجَ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُـــؤْمِنْ بِاللـــهِ وَيَعْمَـــلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ ، خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَـــداً ، قَـــدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً** (11) } الطلاق .

والعلاقة بين الإيمــان والعمل الصــالح علاقة طرديّة لا تتخلّف ، فكلّما قـــــــوي الإيمان نَشِـطَ الجسد إلى العمل الصـالح ، وقـويت رغبته ، وكلّما ضـعف الإيمـان فـتر الجسد عن العمل الصالح ، وضـعفت همّته ، وهــذا ما يــدعو الوالد والمــربّي إلى أن يعتــنيَ بإيمــان الطفل والناشئ ، غرســاً وتعهّـداً ورعايـةً ، لأنّ الإيمـان هو المُرتكـزُ الأوّل في بنـاء شخصـيّة الإنسـان وتقـويم سُــلوكه ، وعلّة أنــواع الاختلالات الفكريّة والسـلوكيّة في حيـاة شـباب الأمّة اليـوم ، إنّما هو ضعف الإيمــان واليقين ، أو اعتلاله وفساد قصْده .

وقد طفحت آيات الكتاب العزيز ببَيـان هــذه الحقيقة وتأكيــدها ، فمن ذلك قـــولُ الله تعالى فيمن ينكص عن العمل الصــالح ، والالــتزام بــدين الله : { .. **أفتؤمنــون ببعض الكتــاب ، وتكفــرون ببعض ، فما جــــزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خــزيٌ في الحيــاة الــدنيا ، ويـــوم القيامة يــردّون إلى أشــدّ العــذاب ، وما الله بغَافلٍ عمّا تعملـون** (85)ـ } البقرة .

وعندما أخذ الله ميثاق بني إسْـرائيل ، ورفع فوقهم الطور ، وقيل لهم : خـذوا ما آتينـاكم بقـوّة واسـمَعوا ، فقـالوا : سـمعنا وعصـينا ، قـال الله تعـالى فيهم : { .. **وأشـربوا في قلـوبهم العجـلَ بكفـرهم ، قل : بئسَـما يـأمركم به إيمـانكم ، إن كنتم مؤمـنين** (93)ـ } البقرة .

وبعد ؛ فـإنّ على المـربّي أن يركّز جهوده الصـادقة المخلصة على أن يُـترجَم الإيمـان في حيـاة الطفل والناشئ إلى سـلوك عمليّ صـالح ، يعمّ خـيره ، وتتّسع آفاقه ، ولا يقتصر على جـانب من جـوانب حياته ، وأن يعلّم الطفل والناشئ أنّ العمل الصالح عبادة ، وربّما كان أحبّ إلى الله من نافلة الصـلاة والصـيام ، لأنّه أنفع للعبـاد ، وأعظم أثـراً في حيـاتهم .. وأن يحبّب بالأعمـال الصـالحة ، ويـدرّب عليها ، حتّى له عـادة راسـخة ، وجـزءاً من شخصيّته وسلوكه .

وممّا ينبغي أن يغـرس في نفس الطفل والناشئ أنّ من اتّبع غير منهج الله تعالى معتقداً أنّه أحسن أو أعدل من منهج الله ، فقد أشرك في عبادة الله وتوحيده ، ونجد مصداق ذلك في كتاب الله عزّ وجـلّ

، إذ يقول الله تعالى : { **ألم أعهد إليكم يا بـني آدم أن لا تعبـدوا الشـيطان إنّه لكم عـدوّ مـبين** (60) **وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم** (61) } يس ، ويقـول تعـالى : (.. **وإنْ أطعتُمُوهُم إنّكُم لَمُشرِكُون** (121) } الأنعام .

فإذا أدّى الوالد والمربّي هذه الرسـالة فإنّه يكـون قد قـام بمسـئوليّة تحصـينيّة للطفل تقيه من تيّارات المسخ والتشويه ، التي تستهدف كيان الأمّة ، وشخصيّة جيلها المعاصر ..

* العبادات أمانة !

التكـاليف الإلهيّة كلّها أمانــات ، يكلّف الإنســـــــــان بحفظها وحسن رعايتها ، وسيُســأل عنها يــوم القيامة ، قــال الله تعـــالَى : ﴿ إِنَّا عَرَضْـــنَا الأَمَانَـــةَ عَلَى السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَــالِ فَــأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) ﴾ الأحزاب .

وقال تعالى : ﴿ لِيَسْـأَلَ الصَّـادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً (8) ﴾ الأحزاب .

ولقد كان النداء الأوّل في رسـالة كـلّ رسول عليهم الصـلاة والسلام : ﴿ يَا قَـوْمِ اعْبُــدُوا اللــهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَــهٍ غَيْــرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (65) ﴾ الأعـراف ، وجـاء الخطـاب العامّ للإنسـانيّة في القـرآن الكـريم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُــــدُوا رَبَّكُمْ ، الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُــونَ (21) ﴾ البقرة .

فدلّ الجمع بين هذه النصوص على أنّ العبـادات أمانـات .. ووجه عـدّ العبـادات أمانـــات : أنّها تشْـــترك مع الأمانة المادّيّة المعروفة في وجوب المحافظة عليها كما

هي ، وعدم التغيـيرـ أو التبـديل في شـيء منها ، وأدائها كاملة غــيرَ منقوصة ، مــتى طلبها صــــــاحبها ، أو أمر بها ، وهو الله تعالى جلّ جلاله ، وتباركت أسماؤهُ..

والصلوات الخمس من أعظم الأمانات وَأجلِّها ، لما فيها من بُرهان العُبُوديّة الصادق ، إذ تحتاج المحافظةُ عَليها إلى مغالبة الأهواء والتعلّقات الدنيويّة الشاغلة عن ذكر الله ، ولما فيها من أنواع الطهَارات الحسّيّة وَالمعنويّة ، والتكرار في أوقات دقيقةٍ محدّدة ، آناء الليل وأطرَاف النهار .

ولو نظرنا إلى الصيام من هذه الوجهة لرأيْنَا أنّ التعبيرَ عنه بالأمانة يحمل دلالات هي على درجة كبيرة من الأهمّيّة :

ـ فهو أمانــةٌ ، تجب المحافظة عليها كما أمرَ صاحبها.

ـ وهو أمانـــةٌ يجب أداؤها كما أمــــرَ صاحبها كذلك ..

ـ وهو أمانـةٌ كـذلك من حيث هـو سـرّ بين العبد وربّه سبحانه ، لا يظهر لأحد من خلق الله ..

وأداء الزكاة من الأمانة ، لأنّ المالَ كلّه أمانَة بيد الغنيّ ، ومقدار الزكاة منه

ليس مالَه على وجه الحقيقة ، فيدُه يد أمانةٍ عليه ، والله تعالى يقول : وأنفقوا ممّا جعلَكم مستخَلفين فيه .. (7) الحديد .

ـ والحجّ كـــذلك أمانـــةٌ من أعظم الأمانات الشـرعيّة ، يـؤتمنُ فيه المـؤمنُ على محظــورات الإحـــرامِ فلا ينتهكها ، وعلى الوَاجبات والمناسك فلا يُقصّــر فيها .. وفيه يجدّد توبته لله ، وعهـده مـع الله ، ألاّ ينحـرف عَنْ شـَرعِ الله ودينـه ، مهمـا تعرّض للمحن والابتِلاءَات ..

فمن تربّى على حفظ أمانة العبادات ورعايِتها ، وأداء حقّ الله فيها على أحسَن حال .. كان جديراً أن يحفظ سائر الأمانات ويرعاها .

ومن هنا كانت هذه العباداتُ أركاناً لدين الله يقوم عليها بُنْيانه ، وبها يُكتشف رسوخه في القلب وتمكّنه .. وكان حقّاً على الوالد والمربّي أن يتعهّد الطفل والناشئ بغرس محبّة هذه العبادات في قلبه ، والنشأة على المحافظة عليها وإتقانها ، وتعظيم شأنها وحرمتها ، واليقين أنّ من أتقنها بحقّ فهو أهل أن يستقيم في سائر شئون دينه ودنياه ،

ومن فرّط بها أو ضيّعها فأنى له أن يؤتمن على ما سواها من أمانات .؟!

* الحياة ساحة للعبادة .!

إنّ أهمّ ما يترتّبُ على الفهْم الصحيح الشامل للعبادة : أن تكونَ حياة الإنسان في كلّ جانب من جوانبها ، وكلّ نشاطٍ أو عمل عبادة ، يتقرّبُ بها الإنْسان إلى الله تعالى كما يتقرّب بأداء الصلاة ، والزكاةِ والصومِ والحجّ .. وهذا ما بيّنته الآية الكريمة ، وجعلته شعاراً للمسلم ، يعلنه ويعتزّ به : { **قُلْ : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ** (162) ـ **لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ** (163) } الأنعام .

كما بيّنه هدي النبيّ في مناسبات عديدة ، منها ما جاء في الحديث الصحيح عن ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ : (**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**) **قَالَ أَبُو قِلابَةَ : وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلابَةَ : " وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ ، يُعِفُّهُمْ ، أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ ، وَيُغْنِيهِمْ** " [1] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /1660/ .

ـ وما جاء في الحديث عن أَبِي هُرَيْـرَةَ قَــالَ : قَــالَ رَسُــولُ اللــهِ : (**دِينَــارٌ أَنْفَقْتَــهُ فِي سَــبِيلِ اللــهِ ، وَدِينَــارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَـةٍ ، وَدِينَـارٌ تَصَـدَّقْتَ بِــهِ عَلَى مِسْـكِينٍ ، وَدِينَــارٌ أَنْفَقْتَــهُ عَلَى أَهْلِــــكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْــــرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**) [1] .

ـ وما جــاء في الحـــديث ، عن أَبِي مَسْــعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَــالَ : (**إِذَا أَنْفَـقَ الرَّجُــلُ عَلَى أَهْلِــهِ نَفَقَــةً ، وَهُــوَ يَحْتَسِبُهَا** ، **فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ**) [2] .

والاحتســـــاب هو طلب الأجر من الله تعالى .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ : قَـالَ رَسُــولُ اللــهِ : (**أَرْبَعُــونَ خَصْــلَةً ، أَعْلاهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْـزِ ، مَا مِنْ عَامِـلٍ يَعْمَـلُ بِخَصْـلَةٍ مِنْهَا ، رَجَـاءَ ثَوَابِهَا ، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ**) قَــالَ حَسَّــانُ : فَعَــدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَـةِ العَنْـزِ ، مِنْ رَدِّ السَّـلامِ ، وَتَشْـمِيتِ الْعَــاطِسِ ، وَإِمَاطَـةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيــقِ ، وَنَحْــوِهِ ، فَمَا اسْــتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُــغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً " [3] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /1661/ .
2(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الإيمان برقم /53/ .
3(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الهبة برقم /2438/ .

وإنّي لألمحُ نُكتَة تربويّة في هـــــــذا الحديث عميقة ، وهي لماذا لم يُعدّد النـبيّ هــذه الخصــال الأربعين .؟! ولمــاذا لم يستطع أحد رواة الحديث أن يعدّد هو ومن معه ، خمس عشــرة خصــلة منها .؟! إنّ السـرّ في ذلك ــ والله تعـالى أعلم ــ أن يبقى الباب مفتوحاً مع الزمن لما يجدّ في حيـاة النـاس من أعمـال خـير صـغيرة في نظر النـــــاس ، ولكنّها في مـــــيزان الله عظيمة ، ربّما تكــون للعبد ســببَ دخــول الجنّة ، وكيلا يحتقر مسلم شيئاً من أعمال البرّ ، وخصال الخـير ، فهي تجـبر كسـراً ، وتسدّ خللاً ، وتسعد أسرة ، وتنقذ نفساً ..

ويبلغ فضـلُ العمل الصـالح ، ولو كـان تافهـاً في نظر النـاس مبلغـاً عظيمـاً عند الله تعالى عندما يكون سـبباً لمغفـرة الله للعبد ودُخوله الجنّة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُـولَ اللـهِ قَـالَ : (بَيْنَمَا رَجُـلٌ يَمْشِـي بِطَرِيـقٍ وَجَـدَ غُصْـنَ شَـوْكٍ عَلَى الطَّرِيـقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ..) [1] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ : (**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ ، اشْـتَدَّ عَلَيْـهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَـدَ بِئْراً ، فَنَـزَلَ فِيهَا ، فَشَـرِبَ ، ثُمَّ خَـرَجَ ، فَـإِذَا كَلْبٌ**

1(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الأذان برقم /615/ .

يَلْهَثُ ، يَأْكُـــــلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَـدْ بَلَـغَ هَـذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَـغَ بِي ، فَنَــزَلَ الْبِئْرَ ، فَمَلأَ خُفَّهُ ، ثُمَّ أَمْسَــكَهُ بِفِيهِ ، فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُـولَ اللـهِ ! وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْـراً ، فَقَـالَ : نَعَمْ ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَـةٍ أَجْـرٌ) (1) .

إنّ هـــذا الفهم للإســـلام ممّا يحتـــاج المـــــــربّي إلى غرسه وتعميقه في نفس الطفل والناشئ ، وتدريبه العمليّ عليه في كلّ مناسـبة ، كيلا يفهم الإسـلام فهمـاً كَنَسِيّاً ، يعزل الدينَ عن الحيـاة ، والعبـادة عن الســلوك ، ويحصر الــدينَ في زَاويـــةٍ ضـــيّقَة من الشـــعائر ، الـــتي هي أشـــبَهُ بـــالرموز والطقـــوس ، تُـــؤَدّى بغـــير فهم لحكمها ، ولا وعيٍ بمقاصـــــــدها وإدراك لمواقعها .. ثمّ تكـــون متناقضـــةً مع ســـائر سلوك الإنسان ونشاطه ، ويكـون نشـاطه تائهاً عنها ، لا يلتقيها ولا تلتقيه ..

فعمل الخـــير في تصـــوّر المســـلم وممارســـته اليوميّة ليسَ قاصـــراً على

1(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الأدب برقم /5550/ .

شـــــعائر العبـــــادة ، يؤدّيها في أوقـــــات مخصوصة ، ثمّ تكون الحياة شريعةَ غاب ، وتنــاطُحَ ذئــاب .. وإنّما الأرض في تصــوّر المسلم محراب للعبـادة ، والحيـاة مَيـدان لها رحب ، والعمل النــافع الصــالح هــدف المســــــــلم وهمّته وطموحه ، ممّا يجعل المسلم يتعامل مع الحياة والأحياء بإيجابيّة فاعلة ، ونظْـرةٍ إيمانيّـةٍ سـامية ، إنّها زمن الجـدّ والاجتهـاد ، والتنـافس في الأعمـال الصالحة ، والاغتنـام لها ، والادّخـار للآخـرة .. بما ينفع عنــــدَ الله ، ويقــــرّب إليه .. وليست الحياة ملعب لهو ، ودار وزر ..

وممّا يؤَكّد هــــــذه الحقيقة في نَفس المؤمن ، ويؤازرها ويعمّقها قوْلُ النــبيّ ﷺ : (**وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْـــــــــجِداً وَطَهُــــوراً ، فَأَيُّمَا رَجُـــلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ** ..) [1] .

إنّ هــذا الشــمول في فهم العبــادة والتعامل معها حــــريّ أن يمنحَ الطفـــــلَ الجدّيّة والإيجابيّة ، منــذُ نشــأته ، وتكــوّن

1(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب التيمّم برقم /323/ ، ونصّه : عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللـهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَـالَ : (أُعْطِيتُ خَمْسـاً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَـانِمُ ، وَلَمْ تَحِـلَّ لأَحَـدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّـفَاعَةَ ، وَكَـانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) .

عاداته وأنماط سـلوكه ، ولا يمكن بعد ذلك أن يكـــون مصـــدر خطر أو ضـــرر على مجتمعه أوْ أمّته .. أو عضـــواً أشـــلّ في المجتمع ، عالة على الناس ..

* كيف يرعى المربّي مفهومَ العبادةِ .؟

العبادةُ في مفهومِها العامّ هي **كلّ ما يحبّه الله تعـــالى ويرضـــاه ، من الأقـــوال والأفعـــال والأفكـــار ، الظــاهرة والباطنة** ، وهــذا المفهــوم الــذي لا أعلم أحــداً ممّن يعتـدّ به يخالفه ، يعطي شــموليّة في فهم الإســلام ، وفي التعامل مع مختلف شـئون الحيـاة ، ويضع ذلك في منظــور من التطلّع إلى الآخــرة ، والرغبة في التقرّب إلى اللـه تعـالى ، فهو ينتظم شــئون الحيـــاة كلّها ، ويجمع بين الــدنيا والآخـرة ، في تـآلف وانسـجام ، لا يعرف القطيعة ، أو التنافر والصراع ..

وقــوام العبــادة بهـذا المفهــوم أمران :

ـ **الأوّل** : نيّة التقرّبِ إلى الله تعالى ، وهو ما يعبّر عنه في بعض النصـوص أيضـاً بالاحتساب .

ـ **والثاني** : القيــام بالعمل وفق منهج الله تعالى ، وما شرعه الله فيه .

ولا نريــد أن نعــالج في هــذه الكلمــة ألوانـــاً من الفهم الخـــاطئ للعبـــادة ، والممارسات الكثيرة التي نتجت عنه ، وما

تولّد من نتائج سلبيّة ، كان لها أكبرُ الأثر فيما وقعت فيه الأمّة منْ مظاهر الانحراف والتخلّف ، والتخلّي عن سدّةِ القيادة للبشريّة .. فلذلك موطن آخر ، ولعلّ بيان الحقيقة وتجليتها كفيل بتصحيح الخطأ ، وتقويم العوج ..

وإذا كانت العبادة في مفهومها العامّ كذلك ، فهي تقتضِي من المربّي أن يتعامل مع مَن يُربّيه من هذا المنطلق الشموليّ من خلال : غرس هذا الفهم الصحيح ، وأنّه هدف وجود الإنسان وغاية خلقه أوّلاً ، وربطه بواقع الحياة ثانياً ، ووضع هذا التصوّر الصحيح موضع التنفيذ ، في كلّ موقف إيجابيّ أو سلبيّ ثالثاً ، ثمّ القياس والتقويم لسلوك الطفل والناشئ ومواقفه ، على ضوء هذا المفهوم رابعاً ، ومتابعة ذلك بما يتناسب مع طبيعة كلّ مرحلة عمريّة ومتطلّباتها خامساً ..

هذا باختصار وإجمال منهج التربية على العبادة وخطّته ، وما يقتضيه ويستلزمه من مراحل ، ليكون هذا المنهج في بؤرة الواقع وحركة السلوك ..

والتفصيل المجمل لهذا المنهج يحتاج إلى شيء من البيان بعد الإجمَال :

1 ـ فالغرس لمفهوم العبـادة الصـحيح يقتضي أن يقدّم المربّي الأدلّة المناســبة : النصّــــيّة والعقليّة ، على أنّ العبــــادة هي هـدف وجـود الإنسـان وغاية خلقه ، كقـول اللــهُ تعـالى : { **وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُـدُوا اللــهَ مُخْلِصِــينَ لَـهُ الـدِّينَ حُنَفَـاءَ ، وَيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ ، وَيُؤْتُـوا الزَّكَـاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** (5) } البيّنة .

وقوله تعـــالى : { **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُـدُونِ** (56)ـ **مَا أُرِيــدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَمَا أُرِيــــــــدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** (57) } الذاريات .

وقوله تعـالى : { **قُـلْ : إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَاي وَمَمَـاتِي للـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (162)ـ **لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** (163)ـ } الأنعام .

وقوله ســبحانه : { **وَلَقَـدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولاً ، أَنْ اُعْبُـدُوا اللــهَ ، وَاجْتَنِبُــــــوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَـدَى اللــهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّـــلالَةُ ، فَسِــــيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَـذِّبِينَ** (36) } النحل .

والطاغوت هو كـلّ ما عُبد أو أطيع من دون الله برضَــى منه ، ورأس الطــواغيت إبليس ..

والفهم الصـحيح لهـذه الآيـات وأمثالها يعدّ من الأدلّة العقليّة على هذه الحقيقة .. وإذا كـان دين الله وشـرعه قد بيّن للنـاس ما يكلّفهم الله تعالى به في كلّ جانب من جـــوانب الحيـــاة ، منذ الميلاد وإلى ما بعد الوفـــــاة .. أفليس أداء تلك التكـــــاليف ، والالتزام بها عبادةً لله تعالى .؟ يثاب عليها الإنسان ، وتكون سبب مغفـرة الله تعـالى ورضـوانه له ، فـإن لم يكن أداء التكـاليف عبادةً .؟ فماذا يكون إذن .؟! **وإنّ غرس المفهـوم الصـحيح للعبـادة يقتضي ثلاثة أمور** :

أ ــ التكـرار والتأكيد ، ليطمئنّ المـربّي إلى تحقيق ما يريد .

ب ـ والتذكير بذلك بين الحين والآخر .

ج ـــ وتقـــديم النمـــاذج ، والتمثيـــل بالمواقف ، ويحسن أن تكون ممّا ذكر في النصوص النبويّة ، وهي كَثيرة متنوّعة ..

2 ـ وأمّا ربط مفهــوم العبــادة بواقع الحيـاة ، فهـذا من البداهة بمكـان ، إذ إنّ المفهوم الشـموليّ للعبـادة يجعل ميـدانَها

السلوك الإنسانيّ بمختلف جوانبه وآفاقه ، وهــذا ما أشــار إليه حــديث النــبيّ عن شعب الإيمان ، فيما رواه أبو هُرَيْـرَةَ عَن النــبيّ أنّه قَــالَ : (**الإِيمَــانُ بِضْــعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِـتُّونَ شُـعْبَةً ، فَأَفْضَـلُهَا قَـوْلُ : لا إِلَـهَ إِلاَّ اللـهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَـةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيـقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**) [1] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الإيمـان بـرقم /51/ ، ويحسن في هــذا المقــام أن أنقل فائــدة لطيفة تتعلّق بعــدد هــذه الشعب عن الإمام ابن حبّـان رحمه الله ، فقد قـال في كتـاب : " الإحســان " /1/387/ : " وقد تتبّعت معـنى الخبر مدّة ، وذلك أنّ مذهبنا أنّ النبيّ لم يتكلّمْ قطّ إلاّ بفائــدة ، ولا في ســننه شــيء لا يعلم معنــاه ، فجعلتُ أعدّ الطاعاتِ من الإيمان فـإذا هي تزيد على هذا العدد شيئاً كثـيراً ، فـرجعْت إلى السـنن فعـددت كلّ طاعـةٍ عـدّها رسـول الله من الإيمـان فـإذا هي تنقص من البضع والســبعين ، فــرجعت إلى ما بين الــــدفّتين من كلام ربنا ، وتلوته آية آية بالتــــدبّر ، وعددت كلّ طاعة عـدّها الله جـلّ وعلا من الإيمـان ، فــإذا هي تنقص من البضع والســبعين ، فضــممت الكتاب إلى السنن ، وأسقطتُ المُعادَ منها ، فإذا كـلّ شيْء عدّه الله جلّ وعلا من الإيمان في كتابه ، وكـلّ طاعة جعلها رسول الله من الإيمان في ســننه تسع وسبعون شعبة ، لا يزيـد عليها ، ولا ينقص منهَا شـيء ، فعلمْت أنّ مراد النبيّ كان في الخبر : أنّ الإيمـان بضْـع وسـبعون شـعبة في الكتَـاب والسـنَنِ " ، انظر كتـاب : " اللبـاب في أصـول الفقه " للشـيخ صـفوان

فقد أشار ذكـره لأعلى شـعب الإيمـان وَأَدْنَاهَا ، إلى أنّ ما بينهما من خصال الخير والـبرّ هوِ ممّا يُتَقَـرّبـ به إلى اللـهِ تعـالى ، وفي ذلكَ إشارةٌ أيضاً إلى شُمول مَفهُـومِ العبــادة لشـتّى جــوانب الحيــاة . **وربطَ مفهوم العبادة بواقع الحياة يقتضي مِن المربّي** :

أ ــ أنْ يرسّـخ مفهـوم الخـير والشـرّ ، والمعـروف والمنكر ، وما يحبّه الله تعـالى ويرضاه ، وما يكرهه لعباده ، ولا يرضاه .

ب ــ وأنّ ما يحبّه الله ويرضـاه لا يخلو من : نفــــعِ النفسِ ، أو نفــــعِ النــــاسِ ، والإصــــلاحٍ في الأرض ، والله غـــــنيّ عَن العــالمين ، لا تنفعه طاعة الطــائعين ، ولا تضرّه معصية العاصين .

3 ـ ووضع هذا التصـوّر الصـحيح موضع التنفيذ في كــــلّ موقف ، يتطلّب تركـــــيز المربّي على عدّة أمور :

الداووديّ ص/218/ـ . ومع أهمّيّة ما حقّقه هذا الإمـام عن عدد هذه الشعب ، فإنّها ينبغي أن تفهم على أنّها أنـواع ، وليست أفـرادا ، إذ إنّ النـوع يشـمل صـوراً كثــــيرة لا تـــدخل تحت حصر ، وما ذكرته أعلى من إشـارة الحـديث أهمّ ، لأنّه يـدلّنا على شـمول شـعب الإيمان لكلّ خصال الخير والبرّ ، وبالله تعالى التوفيق .

ـ **الأمر الأوّل** : أن يقصد الناشئ في سلوكه من العمل ما يحبّه الله ويرضاه ، ويبتعد عمّا سواه ، وأن يحاسب نفسه على ذلك .

ـ **والأمر الثاني** : أن يبتعد الناشئ عن التقليد الأعمى ، والتبعيّة بغير وعي ، حتّى في مجال الخير والبرّ ، وإنّما يفعل ما يفعل بدافع من رغبته وإرادته ، لا بدافع منْ تمجيد الأشخاص ، وتقْديس الكبار .

ـ **والأمر الثالث** : أن يجد الناشئ في الوالدين ، وكلّ من يتلقّى عنه قدوةً حسنةً له في سلوكه ، فالقدوة الحسنة تختصر نصف الطريق للناشئ ، ونصفه الآخر للمربّي .

4 ـ وممّا ينبغي على المربّي أن يلاحظه ، وهو يتعهّد مفهوم العبادة ، ويؤصّله في نفس الطفل والناشئ : القياس والتقويم لسلوك الطفل والناشئ ومواقفه ، على ضوء هذا المفهوم العامّ للعبادة ، ومدى انسجامه مع هذا المفهوم ، وهذا يتطلّب من المربّي ملاحظة ما يلي ، وقياسه بدقّة :

أ ـ مدى إتقان الطفل والناشئ للعبادة ، أو احتياجه للتذكير والمتابعة .

ب ـــ مـــدى حبّ الطفل للعبـــادة ، وتقديمها على رغباته الخاصّة .

ج ـ مدى اندفاع الطفل أو الناشئ نحو العبادة ومظاهرها بمفهومها الخاصّ والعامّ بـــدافع ذاتيّ ، بعيـــداً عن تـــأثير المـــربّي ومتابعته .

د ـ قيـاس التطـوّر النـوعيّ ، والتطـوّر الكمّيّ في ســـــــلوك الناشئ ومواقفه ، إيجاباً بالرغبة في السـلوك المطلـوب ، أو سلباً بالنفرة من السلوك غَير المرغــوب ، والتفكـــير الجـــادّ في وســـائل المعالجة وأساليبها .

5 ـ وآخر ما ينبغي على المـــربّي أن يتحلّى به ، وهو يتعهّد مفهـــوم العبـــادة ، ويؤصّـــــــله في نفس الطفل والناشئ : **المتابعة الجـــادّة لما ســـبق ، بما يتناسب مع طبيعة كـــــــلّ مرحلة عمريّة ومتطلّباتها** :

وإنّ إهمال المتابعة يجْعلُ الطفلَ ينْشأ نشـــأة معوَجّة ، ويعـــرّض الناشئ لخطر الانتكـاس بعد الهـدى ، والتخلّف عن ركب الخير ، بعد التقدّم والسموّ .

والنشأة الطيّبة الجادّة لا تعفي المربّي من المتابعة في كلّ مرحلة ، فلكلّ مرحلة غذاؤها ودواؤها ، وما ينفعها ويؤثّر فيها ..

والمتابعة الجادّة تقتضي من المربّي :

أ ــ تغيير أساليبه وتطويرها ، والتفنّن فيها ، فما يناسب سنّاً قد لا يناسب سنّاً أخرى ، وما ينفع في مرحلة قد لا ينفع في مرحلة أخرى .

ب ـ ألاّ يملّ المربّي ، ولا يستيئس ، ولا يتراجع ، ولا ينكص ، ولا يسأم ، ولا يعجز .. وتلك علّة العلل في كثير من الآباء والمربّين ، يهدمون بالتراخي ، ما شيّدوه من المباني ، ويقيمون بلا عمل ، مع أحلام الأمانيّ والتواني ..

وبعد ؛ فما أحرى المُربّي ، الذي يريد أن يكون في أسرته وأولاده للمتّقينَ إماماً ، أن يأخذ هذه الحقائق بقوّة وعزم ، وأن يعلمَ أنّ دون بلوغ سنام العزّ والمجد ، الجهدُ الدائبُ ، والحزمُ الغالب ، ليكونَ منْ أهل الآية الكريمة : { **وكانوا لنا عابدين** } .

والله تعالى وليّ التوفيق والسداد ، والحمد لله أوّلاً وآخراً .

* التربية على العبادة ..

العبــادة لله وحــده هي العهد القــديم الذي أخذه الله على الإنسان ، وسجّله في فطــرهم البشــريّة ، وغرسه في طبــائعهم الأصـــيلة ، منذ عهد إليهم بأمانة التكليف ، فوضع في رءوســـهم عقـــولاً تعي ، وفي صدورهم قلوباً تخفق ، وفي الكون حولهم آيات تهــدي : { **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـابَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُـدُوا الشَّـيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ** (60)ـ **وَأَنْ اعْبُـدُونِي هَـذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** (61) } يس .

هـــــذا العهد الوثيق بين الله تعــــالى وعباده ، هو الذي صوّره القرآن في روعــةٍ وبلاغــةٍ حين قــال ســبحانه : { **وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُــــــورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِـهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَـهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَـةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** (172)ـ **أَوْ تَقُولُـوا : إِنَّمَا أَشْـــرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْــلُ ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْــــدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَــــلَ الْمُبْطِلُونَ** (173) } الأعراف .

فلا عجب أن يكــون المقصــود الأعظم من بعثة النــبيّين ، وإرســال المرســلين ، وإنــزال الكتب المقدّسة هو تــذكير النـاس بهـذا العهد القـديم ، وإزالة ما تـراكم على عهد الفطــرة من غبـار الغفلة أو الوثنيّة أو التقليد ، ولا عجب أن يكـــون النـــداء الأوّل لكلّ رسول : { .. **يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللــهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَــهٍ غَيْــرُهُ ، إِنِّي أَخَــافُ عَلَيْكُمْ عَــذَابَ يَــوْمٍ عَظِيمٍ** (59)ـ } الأعراف ، بهـذا دعا قومه : نـوح ، وهـود ، وصــالح ، وإبــراهيم ، ولــوط ، وشــعيب ، وموسى وعيسى ، عليهم الصـلاة والسـلام ، وكـلّ رسـول بعث إلى قومه ، كـان هـذا محور دعوته ولبّ رسالته .

قال تعالى : { **وَلَقَـدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً : أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** .. (36) } النحل ، وقال تعالى : { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ إِلاّ نُــوحِي إِلَيْــهِ : أَنَّهُ لا إِلَــهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُــدُونِ** (25) } الأنبيـــاء ، وذكر الله تعالى قصص عدد من الأنبياء ، ثمّ قال : { **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِــدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** (92) } الأنبياء ، وقال تعـالى :

{ **وَإِنَّ هَــذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِــدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** (52) } المؤمنون .

فالأديــان كلّها دعــوة إلى عبــادة الله تعالى وحــده ، والأنبيــاء جميعــاً أوّل العابدين لله ، وقد أثنى الله تعالى عليهم بقوله : { **وَكَــانُوا لَنَا عَابِــدِينَ** (73) } الأنبياء ، **فعبادة الله وحــده هي إذن مهمّة الإنســـــان الأولى في الوجــــــود ووظيفته ، وغاية خلقه وحياته** ، كما قــال الله تعــالى : { **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُــدُونِ** (56) } الذاريات .

وعنــدَما أمرنا النــبيّ أنْ نــأمرَ أولادنا بالصلاة وهم أبناء ســبع ، ونضــربهم وعليها إذا بلغوا عشر سنوات وقصّروا في أدائها ، فهذا يعني أنّ التربية على العبــادة من أهمّ ما يعتـــني به الشـــرع ويوليه رعايته ، كما يعني ذلك أنّ الإســلام جعل التــدريب على الصـــلاة على مرحلـــتين ، هما قبل ســـنّ البلوغ والتكليف :

ـ **المرحلة الأولى** : مرحلة الأمر والتعليم والـترغيب ، وذلك عند بلــوغ ســنّ الســـابعة ، ويكـــون التهيّؤ لها والتهيـــيئ : بالقـــدوة الحســـنة ، عنـــدما يـــرى الطفل

والديه يؤدّون الصلاة وغيرها من العبادات ، فيقلّدهم ، ويحاكي أفعالهم ، فيرى منهم الاستحسان والتشجيع .

ـ **والمرحلة الثانية** : مرحلة التأديب والترهيب ، وذلك إذا وقع التقصير والتهاون ، أو التفريط عند بلوغ العاشرة ، وهذا ما يعدّ شاذّاً بعيد الوقوع إذا أحكمت المرحلة الأولى ، ونالت ما تستحقّ من الاهتمام والرعاية ..

فثلاث سنوات من التدريب والترغيب فرصة كافية للناشئ ، لتكون الصلاة نظاماً ، تتطبّع عليه حياته ، وتنشَط له أعضاؤه ، وتكون جزءاً من شخصيّته ، وبرنامج حياته ، وبخاصّة أنّه يرى من حوله من والديه وإخوته الأكبر منه وأخواته ، يؤدّون الصلاة كلّ يوم في أوقاتها بانتظام ، فإذا تهاون بها بعد ذلك أو فرّط ناسب أن يجد من المربّي الحزم والشدّة ، ليعلم أنّ الأمر جدّ ، وأنّ وراءه مسئوليّة في الدنيا قبلَ مسئوليّة الآخرة وجزائها ..

ومن ذاق لذّة العبادة للهِ تعالى استطاع أن يحبّب بنيه بالعبادة ، ويرغّبهم بهَا .. ولم يكن أمره لهم بلغة الأمر والتكليف ، وإنّما بلسَان الحبّ والرغْبة ،

ومَا كان كـذلك كـان تـأثيره دائمـاً بالغـاً ..
وبعد أداء الفـــــرائض وإتقانها ينبغي على الوالد أن يـــرغّب الطفل أو الناشئ بـــأداء النوافل الــرواتب وغـــير الــرواتب ، لينشأ الطفل على حبّ التقرّب إلى الله تعالى ..

ولا يختلف الصــــيام عن الصــــلاة إلاّ بفـارق واحد ، وهو مراعـاة القـدرة البدنيّة للناشئ ، فقد يبلغ الســابعة أو العاشــرة ، وجسمه ضعيف لا يحتمل الصــيام ، فيمهل حتّى يشتدّ عـوده ويَقـوى ، إذ لا يُكلّف الله نفســاً إلاّ وســعَها ، فكيف بمن لم يــدخُل بعد مرحلة البلوغ والتكليف .؟

وقد كان الصحابة يصـوّمون صـبيانهم وهم صغار ، حتّى كانوا يـأتون لهم بـاللعب من العهن ــ أي الصـوف ــ يلهّـونهم بها ، حتّى يأتي وقت الإفطار .

وليس المطلوب من الناشئ أن يصوم الشـــهر مـــرّة واحـــدة ، فمن الممكن أن يصـوم في أوّل سـنة يـومين أو ثلاثة أيّـام مثلاً ، ثمّ يصــــوم بعــــدها أســــبوعاً ، ثمّ أسبوعين .. حتّى يمكنَه بعد ذلك أن يصـوم الشهر كلّه قبل أن يدخل سنّ البلوغ ..

وينبغي أن يلاحظ الوالــــــدان تخفيف التكاليف علَى الناشئ وقت الصيام رحمــةً

به وترغيبـاً ، وذلك من الرفق الـذي أمرنا به ، كما ينبغي عليهم أن يهتمّوا بالسحور ، وأن يكـون مقاربـاً لطلـوع الفجر ، ليكُـون أعون لهم على طاعة الله تعالى وأقوى .

وأمّا الزكـاة فجمهـور أهل العلم على أنّها تجب في مـال الصـبيّ ، ولو لم يبلغ ، يخرجها من ماله وَليّه أو وصيّه ، وحبّـذا أن يعرف الصبيّ ذلك عندما يكـبر ويكـون في سـنّ التميـيز ، ليستشـعر مسـئوليّة الأداء لهذا الركن من أركـان الإسـلام ، وليتـدرّبَ نفسـيّاً وعَمليّـاً على البـذل والإنفـاق في سبيل الله عزّ وجلّ .

وعنـدما يكـبر الطفل فيقـارب سـنّ البلـــوغ ، فينبغي على وليّه أن يحثّه على الصـــــدقة من ماله بيْن الحين والآخر ، ليتعوّد على فعل الخير ، وينشأ على الجود والكرم ..

وأمّا الحجّ وهو الــركن الخـامس من أركان الإسلام ؛ فلا نجد في الهدي النبـويّ أمـراً للأطفـال به ، ويبـدو أنّ طبيعة الحجّ الخاصّة ، الـتي يشـترط فيها الاسـتطاعة ، والاستطاعة تشمل القدرة البدنيّة والماليّة ، والطفل في أغلب الأحـوال مظنّة ضـعف القـــدرة البدنيّة ، فمن رحمة الله تعـــالى

بعباده أن لم يوجّه الأمر لأطفالهم بها .. { **ومن تطوّع خيْراً فهوَ خيرٌ له** } .

ولا يخفى أنّ الفرق بيْنَ الصلاة وسـائر العبــادات لا يحتــاج إلى بيَــان ؛ من حيث الأهمّيّة ، ومن حيث الأثر النفســـــــــيّ والاجتمـاعيّ ، ومن حيث الـوقت والقـدرة على الأداء ، ممّا يجعل لها تميّـــــــزاً في التكليف بها منذ الســـابعة ، والضـــرب على التقصير بها عندَ العاشرة ..

ومن التربية على العبـــــادة تربية الطفل على ذكر الله تعـــالى ، وتســـبيحه وتمجيده ، وتهليله وتعظيمه ، وتعويده على الأخذ بأذكار الصباح والمساء ، وما ورد في الســـــنّة النبويّة من أدعية المناســــبات وأذكارها ، وفي ذلك ترســـــيخ لحقــــائق العقيـدة الـتي يعبّر عنها الـركن الأوّل من أركان الإسلام ..

وإذ كان مفهـوم العبـادة شـاملاً لما يحبّ الله ويرضى ، من الأقـوال والأعمـال الظـاهرة والباطنة ، الـتي تـؤدّى بنيّة التقـرّب إلى الله تعـالى ، فعلى المـــربّي أن يربط للطفل والناشئ كــــلّ عمل من أعمـال الخـير والـبرّ بعبـادة الله تعالى والتقـرّب إليه ، والرغبة في مثوبته ،

لينشأ على إخلاص العمل لله تعـــــالى ، وابتغاء وجهه في جميع أعماله ..

ومن الخطأ الفـادح الـذي يرتكبُه بعض الآبَــاء والأمّهــات أنّهم يهملــون أولادهم منذ الصــغر ، فلا يـــدَرّبونهم على أداء الفرائض والطاعـات لله تعـالى ، فـإذا وصلوا سنّ البلوغ كانت العبـادة أثقل على أنفسهم من الجبـال ، فلم يسـتجيبوا للأمر أو النهي ، وأنفـــوا عن طاعة الله تعـــالى وتمرّدوا ، وما أصدق قول الشاعر :

وينفع الأدب الأولاد في صـــغرٍ   وليس ينفع عند الشيبة الأدبُ

إنّ الغصـــون إذا قوّمتها اعتـــدلت   ولن تلين إذا قوّمتها الخشبُ

أيّها الآباء والمربـون .! لقد قضَـت حكمة الله تعـالى أن يكـون في الأطفـال حـافز فطـريّ قـويّ : أن ينظـروا للكبـار نظـــرة الاقتـــداء في كــلّ شــيء ، فهم يتشبّهون بهم ويقتدون ، ويريدون أن يُـروا الكبـار من أنفسـهم القـوّة والقـدرة على أنّهم يفعلون ما يفعل الكبار ، ولا ينقصـون عنهم في شـيء .. وهـذا الحـافز الفطـريّ خـير عـون للوالـدين والمـربّين على توجيه الأطفـــال والناشــئين نحو ما فيه خـــيرهم

وصـــلاح أمـــرهم من عبـــادة الله تعـــالى والحرص على التقرّب إليه ..

فلنتّخذ من أساليب الترغيب والتحـبيب بالعبادة ، ما يجعل عبادة الله تعالى فطرة راسـخةً مكينة في نفـوس أبنائنا ، وطاعته أحبّ إليهم من كلّ شيء ، وآثر عندهم من كـــــلّ متعة .. ولنعلم أنّ منهج الحـــــقّ لا يسـتغني عن الأسـلوب الطيّب والوسـيلة المحبّبة .. بل هو أحـــقّ بها وأهلها .. **فهل نقدّر مسئوليّتنا حـقّ قـدرها** .؟ فينشأ أبناؤنا على حبّ العبـــــــادة والتعلّق بها ، ويكونوا قـرّة عينٍ لنا في الـدنيا والآخـرة ، فـإنّ الخـير عـادةٌ والشـرّ عـادة ، ويشـيب المـــرء على ما شـــبّ عليه ، والتربية في الصـــغر كـــالنقش في الحجر ، ويقـــول الشاعر :

وينشَأ ناشئ الفتيان منّا
على ما كانَ عوّدهُ أبوهُ

اللهمّ أعنّا على ذكــــرك وشـــــكرك وحسن عبادتك .

اللهمّ حبّب إلينا الإيمـــان ، وزيّنه في قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من

الراشدين ، والحمد لله ربّ العالمين .

* ثمرات العبادة .!

الإيمـانُ عقيـدةٌ تعمُـرُ القلبَ ، وتغمـرُ الجــــوارحَ ، فتثمر الطاعــــةَ والفضــــائلَ والمكــــارم ، وحسن المعاملة ، وســــموّ الأخلاق .. وليس الإيمانُ كلمةً تجــري على اللسانِ ، أو يدّعيها الإنسَانُ بغـير برهـان .. بل هو عقيــدةٌ راســخة ، وأخلاقٌ فَاضــلة ، وأعمالٌ صالحة ..

فالإيمانُ دافع للمؤمن إلى الإكثـار من الطاعــات حبّـاً لله ، وتقرّبــاً منه ، وطلبــاً لمرضاته .. وهذا ما يفسّر لنا اجتهاد النــبيّ في العبادة ، واجتهاد أصـحابه الكـرَام ، بصُــــورة دفعت بعضــــهم إلى المبالغة ، فكانوا يحتـاجون معها أنْ يـدعوهم النـبيّ إلى الاعتـــدال ، والتخفيف عن أنفســـهم ، وأن لا يكلّفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، فـإنّ الله لا يملّ حتّى يملّوا ..

وإنّ أعظمَ ثمـرة من ثمـرَات العبَـادة أن يصل المــــؤمن إلى مرْتبة الإحســـان ، التي هي أعلى مـراتب الـدين ، وقد عرّفها النــبيّ بقوله : (**أن تَعْبُـدَ اللـهَ كأنّـكَ تَراهُ ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنّهُ يَـراكَ**) [1] ، ويَنبغي أن نفهم هنا العبــادة بمعـــنى

1(?) ـ جزء من حديث جبريل المشهور ، رواه مسلم بـرقم /

العمل أيّ عملٍ كـان ــ ما دام مشـروعاً ــ فكأنّ النبيّ يقـول : أن تعْمـلَ العمـلَ لله كأنّك تراه .. وهذا مَا يورّث المؤمن مراقبة الله تعـــالى في مهْنته ، في ســـوقه ، في تجارته ، في مدرســـته ، في جامعته ، في أخذه وعطائه ، في جوْدِه ومنعه ، في حبّه وبغضه ، في كلّ شَأنٍ منْ شئون حياتِه ..

وإذا كـان التعبـير عَن حقـائق الـدين وأعمَاله ومفاهيمه بكلمة جامعة هي : " التقوى " ، فإنّ التقـوى ليست في مفهـوم الإسلام وحقيقتها ـ كما يفهمها بعض الناس ــ ســلوكاً ســلبيّاً ، يتمثّل في موقف ردّة الفعل عن الأمـــور الســـيّئة المكروهة ، ومجاهـــــــدة النفس على تركها .. وإنّما التقـــوى وقاية وقـــوّة ، وطاقة دافعة .. فـــالقوّة وقاية ، والوقاية قـــوّة ، والوقاية والقـوّة تبعثـان في الإنسـانِ طاقة للجـدّ النشِـــــط ، والعمل الراشد .. فلا حقيقة للوقاية بغـير قـوّة ، ولا ثبـات للقـوّة بغـير وِقاية .. إنّهما شرطان لقيام سوق الحـقّ ، وارتفاع أعلامه في الخلق ..

والتقوى روح من نـور الله ، وإشـراقة الإرادة الخيّـرة في النفس المؤمنة ، الـتي حلّقت بطهرها في ســـــــماء الإخلاص ،

8/ والترمــذيّ بــرقم /2613/ وأبو داود /4695/ والنســائيّ /8/97 .

وتخلّصت بنقــاء التوحيد من كــلّ شــائبة ، ورفــرفت في معــارج العبوديّة الصــادقة ، فلم تأسـرها ضـرورة ، ولم تحـدّ طموحها حاجة ..

وبقـدر ما تحمل التقـوى صـاحبها على اجتنـــــاب ما ينهى عنه ، فإنّها تدفعه إلى فعل مَا يـــؤمر به ، والتقـــرّب إلى ربّه بمَا يحبّه ..

والإحسَـــانُ روح تقـــوى الله تعــالى ، الـــتي هي كلمة جامعة لحقـــائق الـــدين ومراتبِهَا كلّها ، الظاهرة والباطنة ، القوليّة والعمليّة والقلبيّة ، وهو يقـود الإنسـان إلى الالتزامِ الصادقِ بدينِ الله تعالى ومنهجه ، وهوَ منَ أهمّ ثمَرات العبادة لله تعالى .

ـ ومن ثمــرات العبــادة لله تَعــالى : إتْقــان العمـــلِ وتجويـــده ، وقد جــاء في الحـــديث : (**إنّ الله يحبّ من العامل إذا عمل عملاً أن يتقنه**) [1] ، لأنّ المؤمنَ عنْدما يقوم بالعمل ابتغَـاء مرضـاة الله تعـالى لابـدّ أن يلاحظ أنّ الله تعـالى طيّب ، لا يقبل إلاّ طيّبـــاً ، ومنْ معـــنى الطيب أن يكون العمل متقناً جيّداً ..

ومن ثمــرات العبــادة : صــلاح النفس واستقامتها وهداها ، وتلك ثمرة من أعظم

1(?) ـ رواه أبو يعلى والعســكريّ عن عائشة ترفعه ، ورواه البيهقيّ والطبرانيّ ، انظر كشف الخفاء 1/286/ .

ثمرات التكليف الإلهيّ ، يقول الله تعالى : { **يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (26) **وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** (27) **يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً** (28) } النساء .

ويقول تعالى : { **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى** (14) **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** (15) } الأعلى .

ويقول سبحانه : { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** (7) **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** (8) **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** (9) **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** (10) } الشمس .

وبعد ؛ فإنّ ثمرات العبادة أكثر من أن تحصى ، وهذا ما يفسّر لنا طرفاً من حكمة الله تعالى إذ جعل العبادات الخاصّة : من صلاة وزكاة ، وصوم وحجّ أركاناً للإسلام ، لما لهَا من تأثير واسع متشعّب في شتّى مناحي الحياة ..

ولكنّنا عنــدَما ننظر نظــرة جامعة إلى ثمـــرات العبـــادة ، نراها تجتمع في ثلاثة جوانب :

ـ **الجـانب الأوّل** : ثمـرات للعبـادة تتعلّق بصـلة العبد بالله تعـالى ؛ كحبّ الله تعـالى وخشـيته ، وخوفه ورجائه ، والتوكّل عليه ، والإنابة إليه ، وذكره تعالى وشــكره ، والإخلاص لوجهه الكريم ، وكمال توحيده وتعْظيمه ..

ـ **والجانب الثاني** : ثمـرات للعبـادة تتعلّق بشخصيّة الإنســان ، وتكوينه وبنائه ؛ كقـــوّة الإرادة ، وســموّ الهِمّـــةِ ، وتزكية النفس ، والتحقّق بالصـــــــدق والأمانة ، والتمسّـــك بمكـــارم الأخلاق ، والبعد عن مساوئها .

ـ **والجانب الثالث** : ثمـرات للعبـادة تتعلّق بصلة الإنسـان بـالآخرين ، وعلاقتهم به ، كحفظ الذمم ، وأداء الحقـوق ، وكـفّ الأذى ، والتســـــامح ، وحسن التعامل مع الناس ، وحسن الظنّ وسلامة الصدر .

ولا شيء من ثمرات العبادة يخرج عَنْ هذه الجوانب الثلاثة ، وهي متّصلة متداخلة .

إنّ على الوالد والمـــــــربّي أن يربط للطفل والناشئ بين العبـــادة ، وما يتّصل بهَا منْ ثمرات وبركات وآثار ، فهذا خير ما

يبعد العبــادة عن أن تكــون جســداً لا روح فيه ، وعـادة لا ثمـرة لها وصـورة لا حقيقة لها ، ولا فائدة منها ..

* أثمنُ ثمرات العبادة

ثمرات العبادة لا يمكن أن يحيط بها وصف ، أو يقدر على التعبير عنها قلم ، ومهما كتب الكتّـاب ، واجتهد المفكّرون فسيبقى وراء ذلك زَاد لمستزيد .!

وإن أثمن ثمرات العبادة وأجلّها ما يتّصل بحقيقة العبادة ومفهومها ، أو يتّصل بحقائق الإيمان وثمراته ، فيزيدها قوّة ورسوخاً .. ومن هنا فإنّ أثمن ثمرات العبادة ما يتحقّق بها إن أدّيت على وجهها وكمالها من حبّ الله تعالى ، والأنس به ، والشعورِ بالحاجة والافتقار إليه ..

وإنَّ القلبَ الإنسانيَّ دائمُ الشعورِ بالحاجةِ إلى اللهِ تعالى ، وهوَ شعورٌ أصيلٌ صادقٌ ، لا يملأُ فراغَه شيءٌ في الوجودِ ، إلاّ حسنُ الصلةِ بربِّ الوجودِ ، وهذا ما تقومُ بهِ العبادةُ ، إذا أُديَت على وجهِها .

وكلَّما أخلَصَ المرءُ العبوديةَ للهِ وجدَ نفسَه ، واهتدى إلى سرِّ وجودِه ، ووجدَ معَ ذلكَ سعادةً روحيةً لا تدانيها سعادةٌ ، تتمثلُ فيما سماهُ الرسولُ ﷺ : " حلاوةَ الإيمانِ " .. وإنَّه لا شيءَ أحبَّ إلى القلوبِ منْ خالقِها وفاطرِها ، فهوَ إلهُها ومعبودُها ، ووليُّها ومولاها ، وربُّها ومدبرُها ، ورازقُها ، ومميتُها ومحييها .

فمحبةُ اللهِ تعالى نعيمُ النفوسِ ، وحياةُ الأرواحِ ، وقوتُ القلوبِ ، وعمارةُ الباطنِ .. وليسَ عندَ القلوبِ السليمةِ ، والأرواحِ الطيبةِ ، والعقولِ الزكيةِ أحلى ولا ألذَّ ، ولا أطيبَ ولا أسرَّ ، ولا أنعمَ منْ محبةِ اللهِ تعالى ، والأنسِ بهِ والشوقِ إلى لقائِه ، والحلاوةُ التي يجدُها المؤمنُ في قلبِه بذلكَ فوقَ كلِّ حلاوةٍ ، والنعيمُ الذي يحصلُ له بذلكَ أتمُّ منْ كلِّ نعيمٍ ، واللذةُ التي تنالُه أعلى منْ كلِّ لذةٍ ، كما أخبرَ بعضُ السلفِ عنْ حالِه بقولِه : " إنَّه ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ أقولُ فيها : " إنْ كانَ أهلُ الجنةِ في مثلِ هذا ، إنَّهم لفي عيشٍ طيبٍ " .

وقالَ آخرُ : " أهلُ الغفلةِ مساكينٌ ! خرجوا منْ الدنيا ، وما ذاقوا أطيبَ ما فيها . فقيلَ لهُ : وما هوَ ؟ قالَ : محبةُ اللهِ تعالى ، والأنسُ بهِ " .

وقالَ آخرٌ : " أطيبُ ما في الدنيا ، معرفةُ اللهِ تعالى ومحبتُه ، وأطيبُ ما في الآخرةِ ، رؤيتُه وسماعُ كلامِه بلا واسطةٍ " .

وقالَ آخرٌ : " لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيهِ منْ النعيمِ ، لجالدونا عليهِ بالسيوفِ ! " .

ووجدانُ هذهِ الأمورِ وذوقُها ، إنَّما هوَ بحسبِ قوةِ المحبةِ وضعفِها ، وبحسبِ

إدراكِ جمالِ المحبوبِ والقربِ منْه ، وكلَّما كانَت المحبةُ أكملَ ، وإدراكُ المحبوبِ أتمَّ ، والقربُ منْه أوفرَ ، كانَت الحلاوةُ واللذةُ ، والسرورُ والنعيمُ أقوى وأعظمَ .. وكلّما ازدادَ العبدُ للهِ تعالى حُبّاً ازدادَ له عبوديةً وذلاً ، وخضوعاً لهُ ورقّاً ، وحريةً عنْ رقِّ غيرِه .

هذا والاشتغالُ بالعبادةِ انتقالٌ منْ عالمِ الغرورِ ، إلى عالمِ السرورِ ، ومنْ الاشتغالِ بالخلقِ إلى حضرةِ الحقِّ ، وذلكَ يوجبُ كمالَ اللذَةِ والبهجةِ " [1] .

فعلى الوالد المربّي أن يجتهد في غَرس هذه الثمرات الطيّبات في نفس الطفل والناشئ ، ولا يكن أمره بالعبادة نوعاً من التكليف بمظاهر ورسوم ، بَعيدة عَن الحقائق والمعاني ..

1(?) ـ من خطب الشيخ أحمد رحمه الله المكتوبة .

يكــاد يكــون الخطأ جــزءاً من تركيبة الإنسان وتكوينه ، وليس ما يقلق أن يكون كـــذلك ، ولكنّ المقلق حقّــاً أن يتحـــوّلَ الخطأ مع مــرور الــزمن إلى : " صــواب مشـــهور " ، ويكـــون في نظر كثـــير من النـاس خـيراً من " الصـواب المهجـور " ، وأن يجد من المتحمّسين له من يدافع عنه ، فيبني له فلسفة ، ويضع له قواعد ، ويذمّ " الصواب المهجور " ، ويـزري به ، ويعيب من يتمسّك به ، ويدافع عنه ..

ويَــزدادُ الخطأ خطــراً عنــدما يتّصل الأمر بدين الله ، فيخشى أن يكــون الخطأ ، الذي يصرّ عليه المصرّون ــ لأنّهم ليسـوا أهلاً للاجتهاد ـ نوعاً من التلاعب والتحريف لــدين الله ، الــذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا منْ خلفه .. وهو غــــــــير الخطأ الاجتهـاديّ المـأذون به ، الـذي يـؤجر عليه صاحبه ، لأنّه في دائـرة الفـروع والظنّيّـات ..

ـ فهناك إذن نوعان من الخطأ :

ـ خطأ مــــــأذون به ، وهو الخطأ الاجتهاديّ ، نمية وتحقيق الصــادر من أهله وفي محلّه ، ولا سبيل لنا إلى الإنكـار على

صاحبه ، لأنّنا لا نعلم الصـواب على سـبيل الجزم واليقين .

ـ وخطأ غـير مـأذون به ، وهو الخطأ المجـزوم به ، وهو الخطأ النـاتج عن سـوءِ فهم ، أو قصـور فهم ، ولا يتمـارى أحد من أهل العلم الموثوق بعلمهم وفقههم بخطئه ، ومجانبته للحقّ .

ـ وهـذا القسم من الخطأ في العبـادة غير المأذون به يمكننا أن نميّز منه الأنــواع التالية :

1 ـ القصور في فهم العبادة .

2 ـ الاقتصـــار على بعض جـــوانب العبادة ، والتضخيم لها وإهمال ما سواها .

3 ـ الإضـافة إلى العبـادة ما ليس منها .

والنــوع الأوّل والثـاني لا يقلاّن أهمّيّـةً عن النوع الثـالث ، الـذي يهتمّ به كثـير من الدعاة والمصلحين ، ويهملون ما عداه .

1 ـ فالقصــور في فهم العبــادة تــدخل تحته صور عديدة ، منها :

أ ـ القصور في معرفة أحكـام العبـادة ومراتبها . فما أكـثر الـذين يـؤدّون العبـادة بجهل ، فلا يميّـزون بين أركانها وواجباتها ، وسننها وآدابها ، ويقضون عشرات السـنين من حياتهم وهم على ذلك .!

ب ــــــ القصــــــور في فهم الحكم التشريعيّة من العبادة بوجه عـامّ ، والحكم التشريعيّة لكلّ عبادة بوجهٍ خاصّ .

ج ـــ القصــور في فهم آثــار العبــادة وثمراتها ، على المسـتوى الفـرديّ ، وعلى المستوى الاجتماعيّ .

2 ـ والاقتصـــار على بعض جـــوانب العبادة ، والتضخيم لها وإهمال ما سـواها ، تدخل تحته كذلك صور عديدة ، أهمّها :

أ ـــ الاقتصـار على العبـادات الفرديّة ، وإهمال العبـادات الاجتماعيّة ، الـتي يتجلّى فيها الاتّصـال بـالمجتمع ، والتعـاون معه ، والانــــدماج فيه ، أوْ عكس ذلك عند بعض الناس .

ب ـــ الاقتصـار على العبـادة بمفهومِهَا الخاصّ ، وإهمال العبادة بمفهومها العــامّ ، وقـــدْ تكـــون أحبّ إلى الله تعــالى ، وفي ميزان العبد أرجح .

ج ـ الأخذ بنوافل العبـادات ، وتـرك ما يجب منها ويتأكّد ، فكم من النــــاس من يشــتغل بالنافلة عن الــواجب ، وبــالواجب الموسّع عن واجب الوقت المضيّق .

3 ـ وأمّا الإضـافة إلى العبـادة ما ليس منها فذلكَ من الابتداع في دين الله تعـالى

، الـذي ينبغي على المـؤمن أن يحـذر منه أشدّ الحذر ، لأنّه ينحرِف عن سـبيل الحـقّ والهدى ، ولا يـدري ما يقـوده إليه انحرافه من أودية الضـلال ، ويتعب نفسه من غـير ثمـرة أو فائـدة ، ويضـيّع العبـادة المطلوبة منه ، ويكون ممّن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً ..

ويتجلّى خطر الابتداع في الدين وسوء أثره مع مـرور الـزمن ، إذ تنطمس معـالم الحقّ من حياة النـاس ، ويصـبح المعـروف منكراً مستهجناً ، والمنكر معروفـاً مألوفـاً ، وهو ما أشرت إليه في بداية هذا المقـال ، وينذر بأسوأ العواقب والآثار ..

فمــاذا على الوالد والمــربّي أن يفعل كيلا ينشأ الطفل على الخطأ في فهم العبــادة وممارســتها .؟ هاهنا جملة أمــور ينبغي أن ينتبه إليها المربّي :

1 ـ التـدرّج في فهم العبـادة ، وحكمِها ومقاصــــــــدها ، بما يتناسب مع المرحلة العمريّة ، الـتي يمـرّ بها الطفل والناشئ ، وألاّ يقتصرَ الأمر على التلقينِ بدونِ فهم .

2 ـ أن يؤكّد على الطفل المفهـــوم الشموليّ للعبادة ، وتعقد له بينها المقارنة والمفاضلة المناسبة لسنّه .

3 ـ أن ينبّه الطفل في مرحلة الطفولة المتأخّرة على الأخطـاء الـتي يقع فيها النـاس في فهم العبـادة وممارسـتها ، تحصـيناً له عن ذلك ، مع التمثيل المناسب .

4 ـ أنّ العبادة كلّما تجـرّدت عن هـوى النفس ، وتحقّق صـاحبها بصـدق التأسّـي والاتّباع كانت أقرب إلى قبـول الله تعـالى ورضاه .

وقبل ذلك كلّه ، وخـير منه أن يكـون الوالد والمـربّي قـدوةً حسـنة في العبـادة للطفل والناشئ ، فهماً وسمتاً وسـلوكاً .. فلا يسع الطفل إلاّ أن يقتـدي ويتـأثّر .. والله الهادي إلى سواء السبيل .

* أطفالنا ونعم الله .!

لقـــد تكرّر في القـــرآن الكـــريم في مناســبات عديدة الأمــرُ الإلهيّ بذكر نِعْمَة اللهِ تَعـالى ، وهي لا يسـتطيعُ الإِنْسـان أن يُحْصيَها عدّاً ، والمقصُـود بهَا جنسُ نعم الله ، التي تَشملُ حياة الإنسان وكيانه كلّه ..

والإنســان منْ طبعه النســيان ، وإلفه للنعم ، وتقلّبه فيها يجعله لا يحسّ بقـــدرها وأهمّيّتها ، فكان لابدّ له من التذكيرِ بها بين الحين والآخر .

وإنَّ من فطـرة الله في الإنسـان حُبّ المحسن وَشكْره ، والاعتراف له بالفضل ، والثناء عليه في السرّ والجهر .

فما أحوجَنا إلى التـــــــذكيرِ بنعم الله تعالى ، لأنّنا عندما ألفناها لم نعدْ نستشعر أهمّيّتَها وَعَظَمَتها .. ومَن مِنَ النـاس مَن لا يتقلّب في نعم الله الــتي لا تعدّ ولا تحصى ، في جميع لحظـــــات حياته ، مهمَا عَظُمَ ابتلاؤه .؟!

ومَن منّا مَن يـــذكرُ هـــذه النعم ، ولا ينسَاها ، ويعرفُ قدْرَها ، ولا يغفلُ عنهَا .؟! ويــؤدّي حــقّ الله فيها كما يليق بجلال الله تعـالى وعظمته .؟ إنّ الأعمـارَ لتفنَى دونَ أدَاء حــقّ الشـكْر على نِعْمَةٍ من نِعمِ اللــهِ عَلى العبد ..

ومن ثمّ فقد تكرّر في القرآن الكــريم التـــذكير بنعم الله تعـــالى على عبـــاده ، والحثّ على شكرها ، والتحــذير من كفرها

، يقـول الله تعـالى : { **وَآتَاكُمْ مِنْ كُـلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنْسَـانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ (34)** } إبراهيم .

ويقول سبحانه : { **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللــهِ لا تُحْصُــوهَا ، إِنَّ اللــهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ** (18) } النحل . ويقول تعالى : { **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللــهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْـهِ تَجْـأَرُونَ** (53) } النحل . ويحذِّر الله عباده منْ كفــر النعَم ، وأنّ عقوبته الشديدة تحيق بأولئك الذين لا يؤدّون حقّ الله فيها ، فيقـول سـبحانه : { .. **وَمَنْ يُبَـدِّلْ نِعْمَـةَ اللهِ مِنْ بَعْـدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَـابِ** (211) } البقرة .

ويبيّنُ ســـنّتَه الثابتـــة في خلقه أنّه ســبحانه لا يزيل النعمـــة عن قـــوم حتّى يسـلكوا بها سـبيل الفسـاد والانحـراف ، فيقول سبحانه : { **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَـةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ** (53) } الأنفال .

وممّا يتنافى مـع شكر نعم الله تعـالى الاستهتار بنِعمِ اللـهِ تعَـالَى وإهـدارهَا ، كما يفعلُ كثير منَ الناس في مناسباتِ الأفراح ، إِذْ يلقــــونَ مَا يزيد مِنْ طعـــامِهِمْ في صــناديق القمامَة ، وَحــولهُمْ منْ يتضــوّر جوعاً ، ويتلوّى فقراً .

ومن أهَمّ الحقـــــائق الــــتي يَنبغي أن يغرسها المربّي في نَفس الطفل :

ـ استشـعار عظمـة الله تعـالى فيما أنعم على عبـاده وتَفضّـل ، منْ نعم لا تعـدّ ولا تحصى ، وأنّ العبــاد عــاجزون عَجـــزاً مُطْلقاً عن أداء حَقّ شكره سبحانه .

ـ أنّ حقيقة الشـكر إنّما هي اسـتعمال النعمــة فيمــا يرضـــي المنعم ، وهو عمل يشترك فيه اللسان والقلب والجوارح .

ـ ينبَغي أن يعوّد الطفــل الإكثــار من ذكـر اللـه تعـالى وشـكره ، وبخاصّـة عنـد تجـدّد نعم الله عليه ، وسـؤال اللـه العـون على حسن عبادته .

ـ أنّ شـــكر النعم كما أمر اللـــه هـــو الســـبيل إلى دوامها ، ونيل المزيد منهـــا ، كمَا قَـالَ تعَـالى : {**وإذْ تأذّنَ رَبّكُمْ لئن شكرتُمْ لأزيـدَنّكُمْ ، وَلئن كفـرتُم إنّ عَذَابِي لَشديد** (7)} إبراهيم .

* مَاذا قبْل : " مروا أولادَكم بالصلاة .؟! "

يظنّ بَعض النـــاس أنّ التربِيـــةَ على العبـادة تبـدأ حين نـأمُرُ الطفـلَ بالصـلاة ، وهو ظنّ واهمٌ ، سـببه الوقــوف عند فهم سطحيّ لحديثِ : " مـروا أولادَكم بالصـلاة .. " [1] ، والحــــــــقّ أنّ مرْحلة الطفولة المبَكّـرةَ هي مرحلة التمهيـدِ لهـذا الأمــرِ والتكليف ، حتّى إذا آنَ الأوانُ لهـــذا الأمر كـــانَ ثمـــرة طبيعيّة لتلك المرحلة المهمّة من حياة الطفل ..

* فمَاذا قبْل : مروا أولادَكم بالصلاة .؟
وما المرحلة التمهيديّة لهذا الأمرِ .؟!

إنّ هنـاك حقـائقَ مهمّة ، على الآبــاء والمـربّين أنْ يغرسـوها في نَفس الطفل ، ويتعهّدوها ، ليكون من آثارها إقبالُ الطفل على العبادة ، عندما يـؤمرُ بها ، وأهمّ هـذه الحقَائق :

1 ـ تحـبيب الطفل بالله تعـالى بتعـداد نعمه ســبحانه : { **وَمَا بِكُم مِن نِعمَـــةٍ فَمِن اللــهِ** ... (53) } النحل ، والتــذكيرِ بهَا بينَ الحين والآخر ، وإثـــــــارةِ العطف والشـــفقة على من حـــــرم منها ، فكيف نحفظ نعم الله .؟

2 ـ التربية على شكْر المنعم ، والثنـاء على منْ قـــدّم المعـــروف ، والله تعـــالى

1(?) ـ رواه أبو داود بــرقم /495/ بإســناد حسن ، وأخرجه أحمد 2/180 و187/ .

أعظم منعم على العَبد متفضّــــــل ، فهل نستَطيعُ أن نؤدّيّ شُكرَ الله على نعمه .؟!

3 ـ تقــديم القــدوة العمليّة للطفْل ، وذلك بأن يــرى والديه ، ومن هو أكــبر منه ســنّاً ، مهتمّين بالصــلاة ، حريصــين على أدائها في وقتها ..

وإنّ الأســرة المســلمة تقــدّم صــورة مضيئة عن الاهتمـام بالصـلاة ، فمنذ الفجر تَــرى الأســرة تنهض إلى الصــلاة كبــاراً وصِـغَاراً ، فيما يشــبه اســتعداداً لاحتفــالٍ بهيج ، فـــالبنون يخرجــــون مع أبيهم إلى المسجد لصلاة الجماعة ، والبنــاتُ يصــلّينَ مع أمّهنّ .. والأطفال الصغار يشْهدونَ هذا الموقف المتكرّر كلّ يوم ، ويشــاركون فيه بطريقتهم الخاصّة ..

وعلى قـــدر عظم الأمر وأهمّيّته يعظم التهييئ النفسيّ له والاستعداد ، فما دامت الصــلاة أهمّ أعمــال المسْــلم فينبغي أن تحظى بـأعلى درجـات التهيـيئ النفسـيّ ، الــذي يجعلها تُــؤدّى على أحْسن صــورَة ، وأتقَن هيئة .. فلا يســتوي من عـــاش في بيت لا يعـرف الصـلاة ، ولا يهتمّ بها ، كمن نشأ في جــــوّ مشــــحون بحبّ الصـــلاة ، والاهتمام بهَا ، والحرص على أدائها ، فلابدّ أن يتــأثّرَ بهــذا الجــوّ ، ويــرث عنه تعظيم الصـلاة ، والاهتمـام بها ، وهـذا ممّا يشـير إليه قـــول الله تعــالى : { **ربّ اجعلــني**

مُقيمَ الصــلاة ، ومن ذرّيّــتي ، ربّنا وتقبّل دعاء (40) } إبراهيم .

هذا ومن أهمّ مظاهر التهييئ النفسـيّ للصلاة :

1 ـ رؤيَة الكبـار يصـلّون ، كالوالـدين والإخوة والأخوات ، وهذا ما يجعل الأطفال منذ السـنوات المبكّـرة يحـاكون الكبـار ، ويقلّـدونهم في حركـات الصـلاة ، وعنـدما يكـبر الأطفـال يـزدادون تعلّقـاً بالصـلاة ، وحبّاً لها .

2 ـ التحــبيب بالصــلاة وما فيها من فوائد ، بما يناسب سنّ الطفل واسـتعداده : فينْبغي أن يحدّثَ الوالدان الطفـلَ بـذلك بين الحين والآخر ، ليزداد شـوقاً كلّما كـبر إلى أداء الصلاة ، ليكون مثل الكبار ..

3 ـ أن يـبيّن الوالـدان للطفل ثمـرات الصــلاة وآثارها ، ومنْ أهمّها : مراقبة الله تعـالى وخشـيته ، وحسن معاملة النـاس ، والبعد عن الفحشـــــاء والمنكر : { **إِنّ الصلاةَ تَنهي عَنِ الفحشاءِ والمُنكرِ ، ولذكرُ الله أكبر** .. (45) } العنكبوت .

4 ـ أن يحـدّث الوالـدان الطفـلَ عن صلاة النـبيّ : كيْف كـانت .؟! بما يناسب ســنّ الطفل ووعيه ، لينشأ متطلّعــاً إلى أداء الصلاة كما كان النبيّ يؤدّيها ..

فقد كـان النـبيّ لا يشـغله شـأن عن الصــلاة ، وكــان إذا حزبه أمر فــزع إلى الصـلاة ، وكـان يقـول لبلال : أرحنا بهَا يا

بلال ! أرحنا بهَا يا بلال ! وقـــام من الليل حتّى تـورّمت قـدماه ، وعنْـدما قيل له في ذلك ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً .؟!

5 ـ بيـان مكانة المصلِّين عنْد الله ؛ فالمصـــلّون تســـتغفر لهم الملائكة ، ويذكرهم الله في الملأ الأعلى ، ويستجيب الله لهم دعاءهم ، ويرفعهم عنـده درجـات عليا في الجنّة ، وهكذا فإنّ الصـلاة مفتـاح الخيرات في حيَاة المؤمن ..

6 ـ ومن التهييئ النفسيّ للصـلاة : أن يُحَفّظَ الطفـلُ بعضَ النصـوص الشـرعيَّة ، التي تبيّن فضل الصلاة وأهمّيّتها ، ويبيَّن له معناها بما يناسب سِنّه ، ومن ذلـك قـول الله تعالى : { **حَافِظُوا عَلَى الصَّـلَوَاتِ ، وَالصَّـلاةِ الْوُسْـطَى ، وَقُومُـوا لِلّـهِ قَانِتِينَ** (238) } البقرة .

وقوله ســبحانه : { **وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِـيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِـعِينَ** (45) ـ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْـــهِ رَاجِعُونَ** (46) } البقرة .

وقوله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ ، إِنَّ اللّـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (153) } البقرة .

وقول تعالى : { **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** (1) ـ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** (2) }المُؤْمِنُونَ.

7 ـ ومن التهيـيئ النفسـيّ للصـلاة : تعليم أهمّ أحكام الطهارة والصلاة بصــورة

متدرّجَة مناســـبة ، حتّى إذا وصل الطفل سنّ السابعة كان مدركاً بصورة جيّدة لأهمّ أحكام الصـلاة ، مؤدّيـاً للطهـارة المطلوبة كما ينبغي .. ولقد رأيت عدداً من الناشـئة في أسرٍ متديّنة ، بلغوا سنّ التميـيز ، وهم لا يعلمـون شـيئاً من أحكـام الطهـارة والصلاة .!

8 ـ ومن التهيـئ النفسـيّ للصـلاة : الاحتفـال بصـلاة الطفل ، ودعـوة الأقـارب والأصدقاء لذلك ، وصلاة الطفل أمـامهم ، وتَقديم الهدايا له بهذه المناسـبة ، وكـذلك الاحتفال بصلاة الفتاة وحجابها .. [1] .

ومثل هـذا الاحتفـال له أثر عميق في نفس الطفل ، وبخاصّـة إذا سُـجّل له وحفظ ، فكان التسجيل ذكرى لا تنسى ..

ومن بركـات هـذا الاحتفـال : دعـاءُ الحاضرين للطفل بحسن النشأة ، والثبات على الحـقّ والخـير ، وتشـجيعهم له بالكلمـات الطيّبة ، ممّا يكـون له أعمق الأثر في نفسه ونشأته ..

فانظر أيّها الوالد المربّي ! رعـاك الله : أإذا كـان هـذا كلّه قبـلَ أن يبلـغَ الطفـلُ السابعةَ ، ويُـؤمرَ بالصـلاة ، فهل يعقـلُ أن يتهاوَنَ بالصلاة ، ويستهترَ بها بعد ذلـكَ .؟!

1(?) ـ وهذا الأسلوب التربويّ كان يعمل به الشيخ أحمد عـزّ الـدين البيـانونيّ رحمه الله في تربيته لأولاده ، ويـدعو إليه إخوانه ، وقد أثمر أحسن النتـائج والآثـار في حيـاة أبنائه وإخوانه ، وبلغني أنّ الشـيخ علي الطنطـاوي رحمه الله كـان يعمل بذلك ، فانظر إلى تشابه أسلوب الرجلين .

هيهــات هيهــات .! ولكنّ " الأمر " عنــدما يقــوم على غــير قاعــدة تربويّة راســخة ، وتمهيد مناسب ، فإنّما يكوْنُ أشبهَ بالنقشِ على المــاء ، أو البنــاء في الهـــواء ، ولنَ نجنيَ من وراء ذلك إلاّ العناءَ .

* لا تهاون بالصلاة .!

ممّا لا يخفى على كـــلّ مـــؤمنٍ أنّنَا مأمورونَ بإقامة الصـلاة .. وإقَامـةُ الصلاة أداؤها على أكمل وجـــهٍ وأحسن صـــورة ، من إتقان طهارتها ، والالـتزام بشـروطها ، وأداء أرْكانِها ، والاهتمـام بواجباتها وسـننها وآدابها .. فإنْ لم تُؤَدّ الصلاة بهذه الصـورة ، فإنّها تكـون صـورةً بغيْر حقيقة ، ضـعيفةَ الفَائدةِ ، عديمـةَ الأثر ، أشـبهَ بالعـادَةِ منها بالعبـادة ، ويـدخل مؤدّيها بهـذه الصـورة تحت قـــول الله تعـــالى : { **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ** (4) **الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** (5) } المـاعون . ومن السـهو عن الصلاة تأخيرها عن وقتها ، أو التفريط بأحكامها وآدَابها ..

ومن الظواهر الاجتماعيّة الشـائعة أنّنا نرى كثـيراً من الآبـاء يتـبرّمون من سـلوك أبنائهم عندما يرونهم متسـاهلين بالصـلاة ، لا يبـالون بتأخيرها عن وقتها ، أو تضـييعها والتفريط بها .. ويتضَايقون منْ سـلوكهم ، وعنـادهم لهم في كثـير من الأحيـان .. ويقولـون : إنّهم لم يقصّـروا معهم ، فقـدْ أمـروهم بالصـلاة منـذُ الصـغر ، وحثّـوهم عليها ، وعندما كبروا أخـذُوا يتهـاونون بها ، ويسْـتهترون .. فكيف حـدث الخلل .؟ وما أسبَابُه ومقدّماته .؟

إنّنا لو لاحظنَا سلوك أمثـال هـؤلاء مع أبنائهم عنـدما أمـروهمْ بالصـلاة لرأينا أنّهم أمَــــروهم بهَا بتهـــاون ، ودعــــوهم إليهَا ، ولكنّهم لم تقترن دعوتهم بإظهَار أهمّيتها ، والتأكيد على خطر التهـاون بها .. بل كـان سـلوكُهم العمليّ أن يفـرّط بالصـلاة لأتفه الأسـبَاب : فمع الانهمـاك في اللعب تضـيع الصــلاةُ .! وعند مشـاهدة المباريــات ، أو المسْلســلات ، أو أفلام الكرتـــون تضـــيع الصـلاةُ .! وفي الخـروج إلى المُتَنزّهـات لا متابعة في أداء الصــلاة .! وبــالنوم تضــيع الصـــلاةُ .! ولا إيقـــاظَ على صـــلاة الفجر شفقة على الطفل .! والكبـار تضـيع منهم الصلاةُ .! بأسبابٍ أو بأتفهِ الأسباب ، ويرى الأطفـال منهم ذلك فيتكـرّسُ في وعيهم : أن لا أهمّيّة للصــــلاة إذَا تعَارضت مع أدْنى مصلحة أو شبْهِ مصلحة ..

كـلّ ذلك وأمثاله وأشـباهه يغـرس في نفس الطفل التهـــاونَ بالصــــلاة .! وأن لا أهمّيّة لها ، ما دام أيّ شـيءٍ يشـغل عنها ، ويؤخّرها عن وَقتها ..

والموقف الصــحيح الــذي ينبغي على الآبـــاء والمــــربّين أن يأخـــذوا به ، هو أنّ الطفل ما دام يــؤمر بالصــلاة عنــدما يبلغ السابعة ، تدريباً له وتعويداً ، فكذلك ينبغي أن يــؤمرَ بقضــائها إذا فاتته لضــرورة من

الضـرورات ، وأن يعلّم أن لا شـيء يقـدّم عليها ، ويعرّضها للخروج عنْ وقتها ، إلاّ ما كـان من الضـرورات الشـرعيّة المعْتـبرة ، وذلك ليرسخ في شعوره الأهمّيّـةُ العظمى للصـلاةِ ، فلا يمكن إذا كـبر أن يسـتهترَ بهَا أو يفرّط ..

وإنّ مـــرضَ الطفـــلِ مُنَاســـبة مهمّة لتعليمه أحكــامَ صَــلاةِ المــريضِ ، أذكر أنّ أخي الأكبر مرض وهو طفل مرضاً شـديداً ، فكان الوالدُ ـ رحمه الله ـ يذكّره بالصلاة ، كلّما صــحا من شــدّة الحمّى ، فلا يجيبه بشيء ، وعندما شفي من مرضه ، قال له : " إنّ الله تعـالى جعل للمــريض أحكامــاً خاصّــة، فيها تيســير عليه وتخفيف ، وكـان بإمكانك أن تصــلّي قاعــداً ، أو مســتلقياً ، وأن تــتيمّم إن عجــزت عن الوضــوء ، ولا تـــتركَ الصـــلاةَ .. أما وقد شـــفيت الآن ، فاقضِ ما فاتك من الصلوات " ، فكان هذا الموقف درساً لنا جميعاً .

ولا تقتصر تربية الطفل على الاهتمــام بالصــلاة ، وعــدم التهــاون بها ، بل ينبغي على المـــربّي أنْ يغـــرس في نفسه آداب الصلاة ، وَيعَلّمَه أحكامَها ، وينتهز لــذلك ما يلاحظُه عليه من بَعض الأخطاء ، أو يطــرح عليه بعض الأســئلة ليفيــده بما ينفعه من أحكام .

ومن المواقف النبويّة في ذلك ما روي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ : (**يَا بُنَيَّ ! إِيَّاكَ وَالالْتِفَاتَ فِي الصَّلاةِ ، فَإِنَّ الالْتِفَاتَ فِي الصَّلاةِ هَلَكَةٌ ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ ، فَفِي التَّطَوُّعِ لا فِي الفَرِيضَةِ**) [1] .

فانظر إلى تنزّل النبيّ معه في الحكم ، بما يناسب سنّه ، تدريباً له على مراعاة هذا الأدب ، والالتزامِ به .

وحدّثني بعض الإخوة ، ولم يكن ملتزماً بدينه منذ نشأته ، فقال : لقد رأيتُ في طفولتي كلَّ من حولي من الرجال والنساء ، المعروفين ـ بين العامّة ـ بتمسّكهم بِدينِهم ، أنّهم يتركون الصلاةَ لأدنى سَببٍ : فيوم الغسيل ، ويوم الدعوة إلى وليمة ، ويوم النظافة العامّة في البيت ، وأمثال هذه الأمور وأشباهها .. كلّها أيّام لا صلاة فيها عندَ النسَاء ، إلاّ في آخر الليل ، فتقضى الصلوات إن بقيَ في المرأة عافية أو رمق لذلك ..

وإذا شُغل الرجلُ بأيّ عملٍ ، فالصلاة تُؤَخّر عن وقتها .. وقدْ تقضى بعد ذلك ، وقد لا تقضى .! فأيّ صورة عن الاهتمام

1(?) ـ رواه الترمذيّ في كتاب الجمعة برقم /537/ ، وقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

بالصــلاة تعطى من أمثــال هــؤلاء الآبــاء والأمّهات .؟!

وبعــدُ ؛ فلعــلّ أهمَّ ما يعمّق في نفس الطفل والناشئ مكانة الصــلاة ، وينْـأى به عن التهَاون بها : أن يُؤمَرَ بالسنن الروَاتب ، قبل الفــرائض وبعــدها [1] ، ويحثّ على الإكثــار من النوافل ، كصــلاة الضــحى ، وقيام الليل ، وتحيّة المسجد ، ويعلَّم صلاة الحاجة وصــلاة الاسْــتخارة ، وأن يــرغِّب بالمحافظة على الأذكـار بعْد الصـلاة ، وأنْ يعلمَ ما للمؤمــنين المقيمين للصــلاة من فضل ، وعلــوّ منزلة عنــدَ الله ، ممّا يحبّبه بالصــلاة ، ويجعله يحافظ عليها ، ويحــرص على أدائها في أوقاتها .

نسْــأل الله تعــالى أن يجعلنَا من أهْل قوله ســبْحانَه : { **ربّ اجعلــني مُقيمَ الصــلاة ، ومن ذرّيّــتي ، ربّنا وتقبّل دعاء** (40) } إبراهيم .

وقوله تعـــالى : { **وأمُر أهلَــــكَ بِالصلاةِ ، واصطَبِر عَلَيهَا ، لا نَسـألُكَ**

1(?) ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَـالَتْ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ : (مَنْ ثَابَرَ عَلَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَـةً مِنَ السُّـنَّةِ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ : أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْـرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْـلَ الفَجْـرِ) ، رواه الترمـذيّ في كتاب الصلاة بـرقم /379/ وقَـالَ : حَـدِيثٌ غَـرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

رِزقـــاً ، نحنُ نَرزُقُـــكَ ، والعَاقِبَـــةُ لِلتقْوَى (132) } طه .

* أبناؤنَا وآداب المسجد .!

الأدب عنـــــوان المســـــلم ، وهو رُوح سَارية في كلّ شيء من دين الله ، يضفي عليه مســحة الكمــال ، وبهجة الجمــال ، ويدلّ الأخذُ به على صــدق التوجّه إلى الله والرغبة بمرضاته .

والمسـاجد بيـوت الله تعـالى شـرّفها الله بالنسـبة إليه ، وجعلها مثابة عبـاده ، ، ومهبط فضــله ورحماته ، وهي أحبّ بقــاع الأرض إليه ، فـــــرض لها من الحقـــــوق والآداب ما يؤكّد على المـــؤمن تعظيمها ، ويدلّ على مزيد خصوصيّتها ، فقـال تعـالى : { **إِنَّمَا يَعْمُـرُ مَسَـاجِدَ اللـهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَأَقَامَ الصَّــلاةَ ، وَآتَى الزَّكَــاةَ ، وَلَمْ يَخْشَ إِلاّ اللــهَ ، فَعَسَـــــى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُــــوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ** (18) } التوبة .

وقال تعالى : { **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ، وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** (36) **رِجَالٌ ، لا تُلْهِيهِمْ تِجَــارَةٌ وَلا بَيْــعٌ عَنْ ذِكْــرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَـافُونَ يَوْمـاً تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالأَبْصَارُ** (37) } النور .

وهي من شعائر الله الـتي قـال فيها :
{ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللـهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** (32) } الحجّ .

ولقد كـــان أوّل عمل قـــام به النَّبِيُّ عندما وصل المدينة المنوّرة بنـاء مسـجده الشـــريف ، ولم تكن مهمّة المســـجد في الإســـلام قاصـــرةً على أداء الصـــلوات فحسب .. بل كانت رسـالةً شـاملة للحيـاة الإنسانيّة ، والنشاطات الاجتماعيّة بمختلف ألوانها .. عرف ذلك المسـلمون الأوّلـون ، فعظّمـــوا المســـاجد ، وأدّوا حقّها عليهم ، فكانت عامرةً بكلّ هـدى ، ومنطلقـاً لكـلّ خـير .. وكـانت نقطة الـدائرة في المـدن الـتي يؤسّسـونها ، وهي أوّل ما يبتـدءون إنشاءه في المدن التي يفتحونها .. وكـانت عمارة المساجد في تلك العصور بما شرع الإســلام من رســالتها العامّة الشــاملة ، يعطي كـلّ نـاظر في أحـوال المسـلمين صــورةً مصــغّرة عن مســتوى الحضــارة الرفيع الذي بلغته أمّة الإسلام .

هذا ، ومن أهمّ آداب المسجد :

1 ـ عمارة المسـجد بـذكر الله تعـالى وطاعته ، وتلاوة كتابه ومدارســـــــــته ، والحرص على حضور مجــالس العلم فيه ، ففي الحـديث الصـحيح ، عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ

قَــالَ : قَــالَ رَسُــولُ اللــهِ : (**.. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُـوتِ اللـهِ يَتْلُــونَ كِتَــابَ اللــهِ ، وَيَتَدَارَسُــونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ نَـزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّـكِينَةُ ، وَغَشِـــيَتْهُمُ الرَّحْمَـــةُ ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْــدَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِـهِ عَمَلُـهُ لَمْ يُسْـرِعْ بِـهِ نَسَبُهُ**) [1] .

2 ـ ومن آداب المسـجد : تعلّق القلب به ، والحــرص على زيارتِه مَا أمْكن ، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَـالَ : (**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللـهُ فِي ظِلِّهِ يَـوْمَ لا ظِــلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : الإِمَــامُ الْعَــادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَـأَ فِي عِبَـادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُـلٌ قَلْبُــهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَـاجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللــهِ اجْتَمَعَا عَلَيْــهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْــهِ ، وَرَجُــلٌ طَلَبَتْــهُ امْــرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَـالَ : إِنِّي أَخَـافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقة فأَخْفَاها ، حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُـلٌ ذَكَـرَ اللــهَ خَالِيــاً فَفَاضَــتْ عَيْنَاهُ**) [2] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء عن أبي هريـرة 2699/ / ، والترمـذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد .

2(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الأذان /620/ـ ، ومسـلم في كتاب الزكاة /1712/ والترمذيّ ومالك وأحمد .

3 ـ ومن آداب المســـجد : ذكر الله تعالى عند دخوله ، وعند الخروج منه ، فقد كان رسول الله إذا خرج إلى الصلاة قال : **(بسمِ اللهِ ، آمنتُ باللـهِ ، تَـوكّلتُ على اللهِ ، لا حَولَ ولا قُوّة إلاّ باللـهِ ، اللهمِ إنّي أسـألُك بحـقّ السـائلينَ عليكَ ، وبحقّ مخـرجِي هـذا ، فـإنّي لم أخرجْه أشَراً ولا بطَراً ، ولا ريـاءً ولا سُمعةً ، خَرجتُ ابتغاءَ مَرضاتِكَ ، واتّقاءَ سَخطِكَ ، أسـألُكَ أن تُعيـذَنِي مِن النارِ ، وتُدخِلَني الجنّةَ)** [1] .

ـ ويســتحبّ أن يقــول عند دخــول المســجد : " **أعُــوذُ باللـــهِ العظيمِ ووجهِهِ الكريمِ ، وسُلطانِه القـديمِ ، مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، باسمِ اللـهِ ، والحمدُ للهِ ، اللهمّ صَلّ على سـيّدِنا محمّــدٍ ، وعلى آلِ محمّــدٍ وســلّمْ ، اللهمّ اغفِر لي ذُنُــوبِي ، وافتَح لي أبــوَابَ رحمتِــكَ** " ، وعند الخــروج من المســجد يقــول مثله ، إلا أنه يقــول : " **وافتَح لي أبوابَ فضلِكَ** " [2] .

1(?) ـ رواه ابن السـني بإسـناد ضـعيف ، وعـزاه في " فقه السـنّة " إلى أحمد وابن خزيمة وابن ماجة ، وقـال : حسّـنه الحافظ ، انظر 1/217 ، وحسّنه العراقيّ في تخريج أحاديث الإحياء 1/ 323 .

ـ ويسـنّ أن يقـدّم رجله اليمـنى في الدخول ، ورجله اليسرى في الخروج .

4 ـ ومن آداب المســجد : صـــلاة ركعتين **تحيّة المسجد ،** فيسنّ لمن دخل المسجد ألاّ يجلس قبل أن يصـلّي ركعـتين لحديث أبي **قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَـارِيِّ** **قَــالَ : قَــالَ النَّبِيُّ** : (**إِذَا دَخَــلَ أَحَـــدُكُمُ الْمَسْـــجِدَ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**) [1] .

5 ـ ومن آداب المسـجد : الحــرص على نظافة المســـــجد وطيب رائحته ، وتنزيهه عمّا لا يليق به من رفع صـوتٍ ، أو إلقاء شـيء من الفضـلات ، ففي الحـديث عن أنس أنّ النـبيّ قـال : (**البُصَـاقُ في المســـجِدِ خَطِيئـــةٌ ، وكَفّارَتُها دَفنُهَا**) [2] .

ـ ورأى النــبيّ في المســجد نخامة فغضب وحكّها .

2(?) ـ وهي مجمـوع روايـات ما جـاء في صـحيح مسـلم ، وسنن أبي داود بإسناد جيّد ، وسنن النسائي .

1(?) ـ رواه البخـاريّ في كتـاب الجمعة /1097/ ومسـلم والترمذيّ وأحمد .

2(?) ـ البخاري 1/ـ 428 ، ومسلم (552)ـ ، وأبـوداود (474) والترمذي (572) والنسائي (2/50، 51)

فعلى المـربّي أن يغـرسَ هـذه الآدابَ وما أشــــبهها في نفسِ الطفل والناشئ ، وخيرُ ما يُعينه على ذلكَ :

ـ أنِ يصحبَ مَعه الطفلَ إلى المسـجدِ ، ويلاحظَ سلوكَه وأدبَه ، وينبّهه ويوجّهه .

ـ أنْ يـرى الطفـلُ في سـلوك والـده ومربّيهَ : محبّـةَ المسـاجدِ ، والحـرصَ على عمـارةِ المسـاجدِ وإحيـاء رسـالتِها إيمانيّـاً وحسّيّاً ، وكيفَ يكونُ سـلوكُ المـؤمن في المسـاجدِ ؟ وكيْف يكـونُ الالـتزامُ بآدابِها ، وتعظيمُ حرماتِها ؟

* أبناؤنَا والصدَقة .!

إنّ منْ أعظم مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر إنفاق المال في سبيل الله تَعالى وابتغاء مرضاته ، وسمّيَ : صدَقةً لأنّه يدلّ على صدق صاحبه ، وقوّة إيمانه بالله تعالى ويقينه ، ورغبته في مرضاة الله ومثوبته ، إذ إنّ حُبّ التملّك من أوثق العواطف الفطريّة ، التي لا يمكن نزْعُها من الإنسان ، أو الوقوف في وجهها ، والإسلام لم يقلّل منْ شأنها ، ولم ينظر إليها نظرة استهانة أو استخفاف ، وإنّما أقرّهَا ، ووضع لها ضوابط وحدوداً ، وهذّب أثرتها وجشعها ، وجعلها مضبوطة العلاقات ، موزونةَ الدوافع والرغبات : فراعى رغبتها الخاصّةَ ومصلحتها ، وحقّ الجماعة عليها ، ومسئوليّتها عن الآخرين ، وجمع لها بين تحقيق مصلحتها العاجلة في الدنيا ، وسعادتها الآجلة في الآخرة ..

وكان من أهمّ الأحكام التهذيبيّة التي شرعها الإسلام لتحقيق ذلك : الحثّ على الصدَقة ، والترغيب بإنفاق المال في سبيل الله ، وقد استفاضت آيات الكتَاب العزيز في بيان ذلك ، يقول الله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا**

رَزَقْنَاكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَـأْتِيَ يَـوْمٌ لا بَيْــعٌ فِيــهِ ، وَلا خُلَّةٌ ، وَلا شَــفَاعَةٌ ، وَالْكَـافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ (254)ـ } البقرة .

ومثّل الله تعـالى لعظم ثـواب المنفق ماله في ســبيل الله ، وما يناله من كــريم الأجر والجــزاء فقـال ســبحانه : { **مَثَــلُ الَّذِينَ يُنفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللهِ ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ ، أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُـلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللــهُ يُضَـاعِفُ لِمَنْ يَشَـاءُ ، وَاللـهُ وَاسِــعٌ عَلِيمٌ** (261)ـ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَــبِيلِ اللــهِ ، ثُمَّ لا يُتْبِعُــونَ مَا أَنفَقُـوا مَنّـاً وَلا أَذىً ، لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ ، وَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (262) } البقرة .

وفي الحثّ على ابْتِغَــاءَ مَرْضَــاةِ اللــهِ تعــالى ومثوبته من وراء بـــذْل الصــدَقة ، والإنفاق فِي سَبِيلِ اللهِ ، يقول سبْحانه : { **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَـاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، وَتَثْبِيتـاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ ، كَمَثَــلِ جَنَّةٍ بِرَبْــوَةٍ ، أَصَــابَهَا وَابِــلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (265) } البقرة .

ويحـذّر الله تعـالى عبـاده من البخل ، فإنّ الإنسان لا يضرّ بذلك إلاّ نفسه ، والله غِــنيّ عن عبــاده ، فيقــول تعــالى : { **هَا أَنْتُمْ هَــؤُلاءِ تُـــدْعَوْنَ لِتُنفِقُــوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللــهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَـــرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُونُــوا أَمْثَالَكُمْ** (38) } سورة محمّد .

والإسلام وهو دين الاعتدال والاتّـزان ، يحثّ على الاعتـــدال في الإنفـــاق : فلا إسـراف ولا تبْـذير ، ولا بخـلَ ولا تقتـير ، يقــول الله تعـالى : { **وَلا تَجْعَـلْ يَـدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْـطِ ، فَتَقْعُـدَ مَلُومـاً مَحْسُـوراً** (29) **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** (30) } الإسراء .

ويقـــول ســـبحانه : { **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُـوا لَمْ يُسْـرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُـرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً** (67) } الفرقـان .

ويحذّر الله تعالى عباده من الاسـتجابة لوساوس الشيطان ، في صدّه عن الإنفاق في سَبِيلِ اللهِ تعــالى ، وتخويفه من الفقر

، فيقول سبحانه : { **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (268) } البقرة .

والصدَقة تدلّ على نموّ عاطفة التوافق الاجتماعيّ واستوائها ، وتجرّد الإنْسان عن الأثرة وتقديس الذات ، وهي تطفئ غضبَ الربّ ، وتُطفئُ الخطيئة كما تطفئ الماء النار وكلّ صدَقة زكاة ، وليست الزكاة صدَقة ، وقد قرن الله الزكاة بالصلاة في أكثر من عشرين موضعاً من كتاب الله ، ممّا يدلّ على أهمّيّتها وعلوّ منزلتها .

وأبواب الصدَقة ومفهومها الشرعيّ لا تقتصر على إنفاق المال في وجوه البرّ والمعروف ، وإنّما كلّ عمل من أعمال الخير يعدّ صدقةً لصاحبه ، يجزئ عن إنفاق المال في سبيل الله ، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : (**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلاَمَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ**

المُنْكَــرِ صَــدَقَةٌ ، وَيُجْــزِئُ مِنْ ذَلِــكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى) [1] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ عَنْ رَسُـولِ اللـهِ قَالَ : (**كُلُّ سُـلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْـهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّـمْسُ ، قَـالَ : تَعْـدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَـدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُــلَ فِي دَابَّتِــهِ فَتَحْمِلُــهُ عَلَيْهَا ، أَوْ تَرْفَــعُ لَــهُ عَلَيْهَا مَتَاعَــهُ صَــدَقَةٌ ، قَــالَ : وَالْكَلِمَــةُ الطَّيِّبَــةُ صَـدَقَةٌ ، وَكُـلُّ خُطْـوَةٍ تَمْشِـيهَا إِلَى الصَّـلاةِ صَــدَقَةٌ ، وَتُمِيــطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)** [2] .

ـ حقــائق أساســيّة على المــربّي أن يغرسها في نفس الطفل :

1 ـ الاهتمــام بالصــدَقة ، وإنفــاق ما تيسّـــر من المــــال بين الحين والآخر في وجوه الخير .

2 ـ ترســيخ الاعتقــاد أنّ الصــدَقة لا تفريط فيها بالمــال ، وإنّما يــدّخر عند الله تعــالى ، ويجــده المــؤمن ، وهو أحــوج ما يكون إليه .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم /1181/ .

2(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /1677/ .

3 ـ أنّ على المؤمن أن يكون معتــدلاً في إنفاقه ، فلا إسراف ولا تقتير .

4 ـ وكـان من هـدي النـبيّ ﷺ تربيـةُ الصـحابة ﵃ على عفّة النفس ، والتـنزّه عن أمـوال الصـدقات ، إلاّ إذا كـان الإنسـان مضــطرّاً إليها ، فاليد العليا خــير من اليد السـفلى ، والعمل لإعفـاف النفس عن المسألة والحاجة عبادة لله ، وهو خـير من كثير من نوافل العبادات .. والمؤمن القــويّ خير وأحبّ إلى الله من المـؤمن الضـعيْف .. وعنـدما يأخذ الإنسـان نفسه بعزيمة الجـدّ والعمل ، يبــارك الله له في كسب يمينه ، ويكـون له تـأثيرُه الإيجـابيّ الفاعل في بنـاء المجتمع ورقيّه .

* * *

* كيفَ يستفيد أطْفالنا من رمضان .؟
ونحبّبهم بالصيام .؟

في كــلّ عبــادةٍ من العبــادات نظــام تربــويّ دقيق ، يشــمل كـلّ فئـات الأمّة ، ربّما اهتـدى إلى جـانب منه بعض النـاس ، فنعمــــوا بنفحاته وبركاته ، ولكنّ أكــــثر المسلمين عنه بعيدون وغافلون ، والعبادة تؤدّى كعـادة من العـادات ، ومن ثمّ فهم لا يقطفـون ثمـرات العبـادة ، ولا تحقّق في حيـاتهم مقاصـدها وأهـدافها .. فمـتى نتّخذ من تكرار العبَادة في حياتنا مناسبة للتفهّم لها ، وحسن الاســتفادة منها .؟! وســبيلاً للغــوص في أعماقها ، واكتشــاف دررها ولآلئها .

وإنّه لينبغي على الوالــدين أن يغرسَــا في نفــوس الأطفــال المعــاني التالية عن الصــيام ، على حسب ما يتناسب مع ســنّ الطفل واستعداده :

1 ـ أنّ صـيام شـهر رمضـان ركن من أركــان الإســلام ، لا يتمّ إســلام المســلم بدونه .

2 ـ فضل الله العظيم ، وثوابه الجزيل لمن يصوم رمضان إيماناً واحتساباً .

3 ـ أنّ الصوم يربّي في نفس المـؤمن رقابة الله تعـــالى ، ومحبّته وخشـــيته ، وإخلاص العمل لوجهه الكريم .

4 ـ وعلى الصــائم أن يتحلّى بــآداب الصيام ، فيحفظ سمعه وبصـره ممّا حـرّم الله ، ويكـــفّ لســـانه عن اللغو والغيبة والنميمة ، ولا يـــرفث ، ولا يفسق ، ويعمر أوقاته بتلاوة القـــرآن الكـــريم ، وذكر الله تعالى وطاعته ، وكثرة دعائه والتضرّع إليه .

5 ـ والصـــيام يعلّمنا ضـــبط الإرادة ، وتربيتها ، وتقويتها ، وتهذيب رغبات النفس ، فما كلّ ما تشتهي تستطيع الوصـول إليه ، وما كـلّ ما تحـرص عليه من مصـلحتها وخيرها أن تبلغه وتناله ..

6 ـ والصيام يربّي نفوسنا على أنّ في المـأكولات والمشـروبات والمشـتهيات ما هو من الخبـــائث ، الـــتي حرّمها الله على الإنسان ، فينبغي عليه أن يعـفّ نفسه عمّا حرّم الله عليه ، ليكون عبـداً لله خالصـاً ، ومؤمناً بالله تعالى حقّاً ..

وإذا أردنا أن يستفيد أطفالنا من شـهر رمضـــان ، وينشـــئوا على حبّ الصـــيام ، فعلينا أن نتّبع ما يلي :

ً1 ـ أن نحسن استقبال شهر رمضان ، بما يتناسب مع قـــــدره ومكانته ، ونبتهج بقدومه ، الابتهــاجَ الشــرعيّ الــذي يحقّق أهدافَ الصيام ومَقاصده .

ً2 ـ ألاّ نـأمر أطفالنا بالصــوم إلاّ إذا قــدروا عليه ، فــالأمر بالصــوم يختلف عن الأمر بالصلاة ، وألاّ نتهاون بأمرهم بالصوم إذا قدروا عليه بدافع الحبّ والشفقة .

ً3 ـ وأن نقـدّم لهم الهـدايا والجـوائز اليوميّة المحبّبة بالصيام ، كما كان السـلف يفعلون .

ً4 ـ أن يكـون للأسـرة نظـام محبّب للنفوس خـاصّ برمضـان ، يحقّق مقاصـده وأهدافه ، من حيث العـــادات في المأكل والمشرب ، والنوم ، وحسن الاستفادة من الــوقت بما يتلاءم مع فضل هــذا الشــهر وخصائصه ..

ً5 ـ أن يتمّ إعْلانُ شعارات في رَمضان على مسْتوى الأسرة ، تتناسب مع قدسـيّة هذَا الشـهر وعظيم فضـائله ، وأن نحـرص على تربية أنفســـنا وأولادنا عليها ، ومن ذلك : الجــود والإحســان والصــدقة على الفقــراءِ والمســاكين ، واغتنــام الــوقت والاجتهـــاد في العبـــادة ، وكـــثرة التلاوة

للقرآن الكــريم ، وحفظ اللســانِ من اللغو والغيبة والنميمة ، وحسن الخلق ، والتحلّي بالصبر وسعة الصدر .

أما والله لو علم الوالدان ما في شــهر رمضــان من العــون لهم على تربية أولادهم ، وســـــموّ بنـــــائهم النفسيّ والاجتمـاعيّ لكـانَ لهم مع هذا الشهر شأن آخر ..

أخي الوالد المــــربّي ! ربّما ســـــألك طفلك هذا السؤال : لماذا نصــوم .؟ وربّما لم يتجرّأ فلم يســألك ، فلا مـانع أن تســأله أنت هذا السؤال ، وتجيبه بما يناسب ســنّه واســتعداده ، ليــؤدّي العبــادة لله تعــالى بــوعي لمقاصــدها ، وفقه لحكمها وآدابها ، وليكــون له من ثمراتها في نفسه ، وآثارها في ســـــــــــلوكه وعلاقاته مَا يدفعه إلى التمسّكِ بها وعدم التخلّي عنها .

فهل نعي ما في هــــذا الشــــهر الكـــريم من الخـــيرات والبركـــات ، والثمــرات الطيّبــات .؟ وهل نحسن اســــــتثمارها في تربية نفوســــــنا وأولادنا .؟

إنّا لــــــــــنرجو ذلك بتوفيق الله ونتمنّـــاه ، والله الموفّق والهـــادي إلى سواءِ السبيل ..

* أطفالُنَا على مائدة القرآن !

أثر القرآن الكـريم في تكـوين الأمّة :

إنّ القـرآن الكـريم هو حبل الله المـتين ، الذي جذب العرب المتفرّقين في البوادي ، المختلفين في الطبع والعادة ، وسَلكهم في أمّة واحـدة ، وجمعهم على دين واحد ، وشـريعة واحـدة ، ولسـان واحد ، وألّف بينهم على خلق واحد ، ونهج في الحيـــاة واحد ، فكـــــوّن منهم دولة بعد أن حقّق فيهم عناصرها .

وبـــالقرآن خـــرج العـــرب من بلادهم غـــازين : يفتحـــون الشـــرق والغـــرب ، وتسْتسـلم لهم قلاع الـــروم وحصـــون فارس .

وبـــالقرآن دخل النـــاس في دين الله أفواجاً ، وعلى القـرآن أقـامَ المسـلمون دولتهم ، وأسّسوا علــومهم .. فلمّا وهنت صـلتهم بـالقرآن وهنت دولتهم ، وضـعف شأنهم ، ثمّ ذهبت ريحهم ، وقويت شوكة أعــداء الله عليهم ، واســتذلّهم من كــان في يــوم من الأيّــام يعيش تحت عطفهم ورحمتهم .!

ولا يصلح آخرنا إلاّ بما صــلح به أوّلنا ، ولا ملجأ لنا إنّ أردنا النهضة والرفعة في

حياتنا الاجتماعيّة والتعليميّة والتشـــريعيّة والاقتصـــاديّة إلاّ بـــالعودة إلى القـــرآن العظيم .. فـــــالقرآن هو النعمة العظمى التي اختصّ الله بها الأمّة الإسـلاميّة : فيه نظـــام الحيـــاة كلّها : فيه الصـــلة ما بين الإنســـان وربّه ، وتنظيم ما بين المـــرء وأسـرته ، وفيه حـدود العلاقة بين الفـرد ومجتمعه ودولته ، وفيه منهجُ الحكم والسياسة ، كما أنّ فيه الأخلاق والفضـــائل ، وفيه نظـــام علاقة الدولة المسـلمة بغيرها من الـدول ، في السـلم والحرب ..

والقـرآن الكـريم هو الكتـاب القـادر على أن يجمع شـــــمل الأمّة على تباعد أقطارها ، واختلاف لغاتها وأجناســــها ، وتبـاين تقاليـدها وعاداتها ، ويصـهرها في بوتقة الحقائق والمبـادئ الـتي جـاء بهَا .. لقد نشر القـــرآن لغة العـــرب فـــامّحت أمامها لغات باختيـار أهلها ورضـاهم ، في الوقت الذي حاولت أنظمة قاهرة ، وأمم غالبة أن تطمس حضـارات أمم أخـرى ، ولغاتها وثقافاتها ، فلم تقـــدر على ذلك ، ولم تســـــتطعه ، بل ازدادت تلك الأمم تمسّـكاً بثقافاتها ولغاتها ، وأصـرّت على مجافاتها للأمم الغالبة لها ، بينما كــــانت

الأمّة المســـلمة الفاتحة محبوبة من أمم الأرض قاطبـــةً ، يشــــهد بـــذلك القاصي والداني ، والعدوّ والصديْق على حدّ سواء ..

وليس مثل القـــرآن الكـــريم منهجـــاً وكتاباً ، يحثّنا على الأخذ بأسـباب السـبق في ميــادين الحيــاة كلّها ، ويـــدفعنا إلى ارتيــاد منــاكب الأرض ، وســبر أغوارها ، واكتشـاف أسـرارها ، ويـأبى علينا إلاّ أن نكون قادة وسادة ، في مقدّمة الركْب ..

فـأين تـذهب العقـول من بعض قومنا .؟! وهم يدبرون عن هدي القرآن الكـريم ، ويجـــافون منهجه ، ويتســـكّعون ذات اليمين وذات الشمال ، ويولّـون وجـوههم قبل المشرق تارةً ، وقبل المغرب أخـرى ، يبحثــون عن المنـــاهج ، ويـــتيهون وراء السبل ، وفي أيديهم النور المبين ، وأمام أبصـــارهم الصـــراط المســـتقيم .. والله تعـــالى يقـــول : ﴿ **وإنّه لـــذكرٌ لـــكَ ولقومِكَ ، وسـوفَ تُسـألُونَ** (44)ـ ﴾ الزخرف .

والمخـــــرج من هـــــذا الواقع المجافي للقرآن أن يُنشّــأَ أطفالنا على مائـــــدة القـــــرآن العظيم ، يغترفون من حياضه ، وينهلون من

معينه ، ولا يخلطون شيئاً من هديه بغيره ..

هـذا ، وأهمّ الحقـائق والمعـاني الـتي ينبغي أن يُنشّأ عليها الأطفال :

1 ـ حبّ القـرآن وتعظيمه وتكريمه ، والأدب مع المصحف .

2 ـ أنّ القـرآن الكـريم منهج حيـاة المسلم ودستورها .

3 ـ الحرص على تلاوة القرآن وتدبّره .

4 ـ الاهتمـام بحفظ القـرآن الكـريم ومراجعته .

5 ـ معرفة هـدي النـبيّ مع القـرآن الكريم ، والحرص على اتّباعه .

6 ـ قصص من معرفة هـدي السـلف مع القـــرآن الكـــريم ، والحـــرص على اتّباعهم .

7 ـ الحرص على اتّبـاع هداية القـرآن الكريم ، في كلّ شأن من شئون الحياة .

وعلى الوالد المربّي أن يأخذَ بالوصايا التالية في تعامله مع الطفل ، لتنشـــئته على حبّ القرآن الكريم وحسن التعامـل معه :

1 ـ حبّب ولدَك بحفظ القُرآنِ ، ورغّبه بذلك بمختلف الأساليب التربويّة الحكيمة .

2 ـ احـذر من تنفـير ولـدك من حفظ القرآن الكريم ، بأن تكرهه على الحفظ ، أو تكلّفه فـــــوق طاقته ، أو تتّخذ معه أساليب في العقوبة غير تربويّة .

3 ـ عوّد ولدَك على الاهتمَام بمُراجعة ما يحفظ من القرآن الكريم بصـفة دوريّة ، كيلا يتفلّتَ منه .

4 ـ اغرس في نفس طفلك الحـرص على فهم القـــرآن وتـــدبّر معانيـــه ، بما يناسب ســـنّه ونمـــوّه ، وفسّـــر له من القرآن ما يناسب سنّه .

5 ـ عوّد ولدَك على أن يكـونَ له ورد يـــوميّ من تلاوة القـــرآن الكـــريم ، لا ينشغل عنه بشيء .

أيّها المربِّي .! إنّ تربية الطفل على حبّ القرآن والقرب من مائدته ، يختصر لك طريقاً طويلاً من جهد التربية وأعبائِها .. وأظنّ أنّك لا تســـــتغني عن ذلك ، فاصـدق في الأمر ، واعـزم على الرشد ، ولا تـــرضَ لنفسك بـــالعجز ، واللـــه وليّ التوفيق والسداد .

[illegible]

يقول الله تعالى : { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً** (9) } الإسراء .

أخي الوَالِد ! أختي الوالدة ! إنّ جزءاً أساسيّاً من مسئوليّة الوالدين عن أولادهم أن يُهيّئوا لهم النشْأة الطيّبة ، والأجواء الإيمانيّة النقيّة ، التي يجدون فيها القدوة الحسنة ، وينعمون بالصحبة النافعة الصالحة ، ويتنسّمون الروح الخالية من أيّ عكرٍ أوْ كدَر .

ولا شكّ أنّ حلقات تحفيظ القرآن الكريم المنتشرة في جميع الأحياء هي خيرُ ما يتحقّق فيه ذلك على أكمل وجهٍ وأتمّه ، فهي محْضن إيمانيّ تربويّ ، يحقّق للفتى والفتاة الناشئين مزايا كثِيرة ، وينمّي شخصيّتهم نموّاً سويّاً متوازناً ، ونحن نعدّد هنا أهمّ هذه المزايا ، ولا نسْتطيع إحصاءها :

1ً ـ فهي تهيّئ لهم القدوة الحسنة ، والتوجيه السليم ، والتربية الإيمانيّة على

يد أساتذة ومـربّين من أهل القـرآن الـذينَ هم أهل اللهِ تعالى وخاصّتهُ .

وما أحـــوج الناشئ والناشـــئة إلى أن يـروا أخلاق القـرآن وآدابه ، تتجسّـد فيمن يتلقّون عنهم القرآن ، ليأخـذوا عنهم العلم والعمل معاً ..

2ً ـ وحلقــات القــرآن تهيّئ للفــتى والفتــاة الصـحبة الصــالحة ، لأتــراب لهم ينشئون النشـأة الصـالحة الـتي يبْحث عنها الآباء والأمّهـات ، وقد لا يجـدونها في كثـير من الأوســاط الاجتمَاعيّة ، وإنّ كثــيراً من الآبـــاء والأمّهـــات يحـــارون كيف يهيّئـــون لأبنائهم وبناتهم تلك الصحْبة ، ولكنّها بحمد الله تعــالى متــوفّرة في أجــواء حلقـــات القـرآن الكـريم على أحسن صـورة بـإذن الله تعالى .

3ً ـ وحلقـات القـرآن تهيّئ للناشـئين العلم الشـرعيّ بأحكَـام دين الله تعـالى ، فلا تتســـرّب إليهم المفـــاهيم والأفكـــار المنحرفة عن دين الله عــزّ وجــلّ ، الــتي تغـــزو بلاد المســلمين بلا هــوادة .. وقلما ينجو منها النـــاس ، فكيف بالبعيـــدين عن العلم والعلماء .؟

4ً ـ وحلقات تحفيظ القرآن الكريم هي المحضن الــتربويّ لغــرس قيم الإســلام ومبادئه وآدابه ، فحفظ القـــرآن الكـــريم والتربية على أخلاق القرآن وآدابه صنوان ، لا ينفـكّ أحـدهما عن صـاحبه ، فـأيّ والد أو والــدة لا يريد أن يــرى في ســلوك أولاده الــــــبرّ به وحسن المعاملة ، والبعد عن العقوق ، ومظاهره الكثيرة المتفشّية .؟!

وما أكثر ما نسـمع الشـكاوى المريـرة من الآبـاء والأمّهـات عن عقـوق أولادهم ، وإســاءاتهم الــتي قد تبلغ حــدّ الضــرب والإهانة ، مع أنّهم يحســـنون إليهم كـــلّ الإحســان ، ثمّ لم يــرَوا منهم إلاّ الإســاءة والعُقُــوق .. وعنــدما يلتفتــون بدقّة إلى أســباب ذلك يــرون : **إهمــال التربية القويمة منذ الصغر من جهة ، وترك الأولاد إلى رفاق السوء يعيثون بهم فساداً وإفساداً من جهة أخرى** ..

5ً ـ وانتســاب الناشئ إلى حلقــات القــرآن الكــريم وانتظامه فيها ســببٌ من أهمّ أسـباب تفتّح مداركه العقليّـةِ ، ونمـوّه المعرفيّ المبكّر ، وظهور طاقاته الإبداعيّة ، وتفوّقه الدراسيّ على أقرانه ، وهـذا أمر ملاحظ مشــــــهود ، بخلاف ما يظنّه خطأً

بعض الآبـــاء والأمّهـــات من خلاف ذلك ، فيمنعــون أبنــاءهم وبنــاتِهم عن الالــتزام بحلقـــات القـــرآن ، وهي ســـرّ نجـــاحهم وتفوّقهم ، فيخسرون بذلك دينهم ودنيـاهم ..

إنّ القرآن الكريم كتـاب هداية معجز ، وهو منزّل بلسـان عـربيّ مـبين ، وفيه من العلـــوم والمعـــارف الدينيّة ، والأخلاقيّة ، والاجتماعيّة ، والحضـــاريّة ما لا يعـــرف لكتـــاب غــيره ، فمن أراد النمــوّ اللغــويّ المبكّــر، والــذوق اللغــويّ الســليم فدونه كتـــاب الله تعـــالى ، ومن أراد العلـــوم والمعـــارف ، والثقافـــات والآداب على اختلاف أنواعها ، وتعــدّد مناحيها واتّجاهاتها فدونه كتـاب الله ، ومن أراد أن يتّصل أوّلاً وآخراً بسـبب من عناية الله تعـالى وثيق ، وباب لا يغلق من أبواب العطاء والتوفيق ، فليصل سببه وسبب من يلوذ به ، ويريد له الخير من أبنائه وبناته بكتـاب الله تعـالى . ألم يقل النـــبيّ : (**خـــيرُكُم مَن تَعلّمَ القُرآنَ وعلّمَه**) [1] .

1(?) ـ رواه البخاري والترمـذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمـــذي وابن ماجة عن عثمـــان ، ورواه ابن ماجة عن سـعد ، بلفظ خيـاركم .. انظر كشف الخفـاء ومزيل الإلبـاس 1/472/ .

ولا ينبغي أن تفهم هـــذه الخيريّة على نحو واحد من أنحائها ، فتكون قاصرة على جانب الأجر والمثوبة ، معزولة عن الخيريّة في الجـوانب الأخـرى الـتي منها مصـالح الدنيا ومطالبها .

ومثل ذلك أيضـــاً قوله : (**أهـــلُ القُرآنِ هُم أهلُ اللهِ وَخَاصّتُهُ**) [1] .

ولكنّ ذلك رهن بتلقّي القـرآن الكـريم للفهم والعمل ، والحـــرص على التـــأدّب بآدابه والالتزام بهديه في كلّ شأن ..

6ً ـ وحلقات القرآن تربّي الناشئ على الجـدّ وعلـوّ الهمّة ، وتعـوّده على تنظيم حياته وحفظ أوقاته ، وتـربّي فيه الشـعور بالمسئوليّة ، والقدرة المبكّرة على تحمّلها ، فلا عجب أن كـان شـباب القـرآن رجـالاً مكتملين ، وهم في أعمار الزهور ، وفتياناً ناضجين ، وهم أبناء بضع سـنين .. ومن ثمّ فـإنّ جماعـات تحفيظ القـرآن الكـريم في كـــلّ بلد من بلاد المســلمين هم حمـــاة حصون الأمّة من داخلها ، وإنّ العمل الذي تضـــطلع به لهو العمل الرائد المـــبرور ،

1(?) ـ رواه النسائيّ وابن ماجة وأحمد والـدارميّ عن أنس مرفوعاً ، وصـحّحه الحـاكم ، وقـال : إنّه روي من ثلاثة أوجه عن أنس وهـذا أمثلها . انظر كشف الخفـاء ومزيل الإلبـاس 1/293/ .

الذي تستحقّ عليه كلّ شكر وتقــدير ، وإنّ للقـائمين عليها من الله تعـالى من المثوبة والأجر ما لا يدخل تحت تصوّر أو حصرٍ ..

وبعد ؛ **فــإِنَّ هدايــةَ الْقُـرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** تفرض على كلّ مؤمن ومؤمنة أن يجعــلَ أولاده قريــبين من هَــذه الهدَاية الإلهيّة يحظــون ببركاتها وخيراتها ، وتفيض عليهم أنوارها وأسرارها ..

نســـأل الله تعـــالى أن يوفِّق الآبـــاء والأمّهات والمربّين إلى أن يولوا كتاب الله تعــالى ما يليق به من العناية والاهتمــام ، ليتحقّق انبعاث هـذه الأمّة من جديـد ، وأن يجعل أبناءنا وبناتنا ببركة القــــرآن العظيم قـــرّة عين لنا في الـــدارين ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

وصلّى الله على عبده ونَبيّه سيّدنا محمّد ، وعَلى آله وصحبه وسَلّم ، والحمد لله ربّ العالمين

ينظر كـــلّ مـــؤمن إلى حفظ القـــرآن الكريم أنّه نعمة من أعظم نعم الله تعـالى على العبد ، ويتمنّى أن يكرمه الله تعـــالى بها في أبنائه وبناته ، لما فيها من الخيرات والبركـات في الـدنيا والآخـرة .. ومنذ جيل مضى كـــان النـــاس ينظـــرون إلى حفظ القـرآن الكـريم أنّه صـنعة العميـان للتلاوة في المـآتم ، وعلى المقـابر .. وقد تطـوّر هـــذا الأمر ، ونظّم ليكـــون للمقـــرئين المحـترفين طريقـاً إلى الـثراء الفـاحش ، تحجز فيه الأدوار ، وتدفع المبـالغ الطائلة ، ويقدّم من يدفع أكثر ، ويسعى الناس وراء الأصوات النديّة ، والأنغام الموزونة ..

ثمّ كان من بركات صحوة النـاس على دينهم ، أن صـــحّح هـــذا المفهـــوم ، ورُدّ للقرآن العظيم اعتبـاره ، فأصـبح الاهتمـام بحفظ القـرآن الكـريم روحـاً سـارية في أبنـــاء الأمّة ، وأمنية عزيـــزة غالية ، يتطلّع إليها الكبار والصـغار ، والرجـال والنسـاء ، ويرعاه المسئولون وولاة الأمـور في كثـير من البلاد الإســلاميّة بكـــلّ تأييد وعناية .. ولعمر الحـــقّ ذلك من أســـرار قـــول الله

تعــالى : { **إنّا نحنُ نزّلنا الــذكرَ ، وإنّا لهُ لحافِظُونَ** (9) } الحجر .

ومع ذلك الاهتمـــام والحـــرص ، ففي العالم الإسلاميّ اليـوم ظـواهر عديـدة ، لا تلتقي مع الاهتمــام الحــقّ بحفظ القــرآن الكــريم كما يريد الله تعــالى ، ولا تتناسب مع ثمراته المرجوّة :

ففي بعض البلاد الإســـــلاميّة لا يتعلّم الطــالب في المدرسة النظاميّة إلاّ بعد أن يختم القـرآن حفظـاً من أوّله إلى آخـره .. ثمّ تراه في مستقبل أيّامه إنساناً آخر : قد نسي القرآن فلم يعد يذكر منه حرفـاً ، ولا ترى شيئاً من ســلوكيّاته يلتقي مع القـرآن ومبادئه .. فقد يكــون تــارك صــلاة ، وقد يكون علمانيّـاً في مفاهيمه وأفكـاره ، وقد يكون مقترفـاً للكبـائر .. وقد يكـون .. وقد يكون ..

وكما يمرّ النـاس بمرحلة الطفولة قبل مرحلة البلـــوغ والنضج ، ففي بعض البلاد الإسلاميّة يمرّ الناس بمرحلة حفظ القرآن الكريم قبل كلّ شـيء في حيـاتهم .. ثمّ لا ترى في مجتمعهم أثـراً للقـرآن أو خـبراً : فمجتمعهم مجتمع احتراب وسفك للدماء ، والجهل والتخلّف ، والفقر والمـــــرض ،

عنـاوين بـارزة في حيـاة النـاس .. وأنـواع العلل الاجتماعيّة تنخر في بنيــان الأمّة من جميع الأطراف .. بصورة لا تجد فيها مكاناً للقرآن ، ولا لآية واحدة ..

ورأيت فيما رأيت رجلاً من التجّار كان يحفظ القـــرآن في طفولته ، ثمّ اشـــتغل بالتجــارة ، ولم يعد يصــله بــالقرآن ودينه شيء .. وهو اليوم يحارب أولاده لتمسّكهم بـــدينهم ، ومحـــافظتهم على صـــلاتهم ، وإقبالهم على طاعة ربّهم .!

ورأيت فيما رأيت أيضـــــاً رجلاً يحفظ القــــرآن ، وهو على حــــظّ من الثقافة الإســلاميّة غــير قليل ، ويــرأس مؤسّسة تجارية ، ولكنّ تعامله مع النـــــاس ، ومع مرءوسيه على وجه الخصوص لا يلتقي مع أخلاق القـــرآن ، وآداب القـــرآن .! يظلم النـاس ، وينتقص حقـوقهم ، ويعتـدي على أمــوالهم .. ولا يبــالي في ســبيل مصــالح دنياه الموهومة بشـيء من مبـادئ القـرآن وأحكامه ..

ورأيت بعض الشـــباب من يتبـــاهى بحفظه للقـرآن ، وهو لا يتـورّع عن عقـوق الوالـدين ، ويسـتهتر بالصـلاة ، وبعضـهم لا يبـــالي بالمحافظة على صـــلاة الجماعة ،

ومنهم من لا ترى في أخلاقه وسـلوكه ، ما يلتقي مع القرآن أو يقاربه ..

ولعلّ كثـيراً من القـرّاء يتّفق معي في الرأي حول وجود هذه الظواهر ، ويرى أنّها نشــاز في التعامل مع القــرآن الكــريم : حفظاً ، وتدبّراً ، وتأدّباً وعملاً ..

ولكنّ الســـــؤال المهمّ : هل يتناسب الاهتمام بحفظ القرآن الكريم وتجويده مع الاهتمـــام بغـــرس أخلاقيّـــات القـــرآن ، والتعامل الصادق مع مبادئه وقيمه .؟ وهل تلاحظ ذلك الجمعيّـــــــــــات الخيريّة ، والمؤسّســـات القرآنيّة .؟ وما تفســـيرها لهــذه الظـــواهر .؟ وأين يكمن الخلل في عملها ، وهي تنفق جهـــوداً مضـــنية في تحفيظ القـــــرآن ، وتتنـــافس فيما بينها لتخريج أكبر عدد ممكن من الحفّـاظ عامـاً بعد عام .؟!

إنّ الخلل يكمن في البعد عن منهج السلف في حفظ القرآن الكــريم ، وتلقينه وتلقّيه .. هذا المنهج الذي كان بيّناً واضـحاً منذ عهد الصـــحابة إلى عهد التـــابعين ، وإلى عهد تـابعيهم ، ثمّ تـراخى النـاس في الالـــتزام بالطريقة المثلى لحفظ القـــرآن الكـــــريم ، وتلقينه وتلقّيه .. وغلب النظر

إلى الكمّ والمظهر على حســـــاب النوعيّة والكيف ، ووقع ما حـــذّر منه المصـــطفى أمّته من أقــوام يتلــون القــرآن لا يجــاوز حناجرهم ..

وقد حَدّثَنا الإمامُ عبدُ اللــهِ بنُ حــبيبٍ ، أبو عبدِ الـرحمنِ السُّـلَمِيّ رحمـهُ اللـهُ عن طريقة الســلف في تلقّي القــرآن الكــريم وتلقينه فقَــالَ : " **حــدّثَنا الــذينَ كَــانُوا يُقرِئُونَنا القُرآنَ ، كعُثمانَ بنِ عَفّـانَ ، وعبدِ اللهِ بنِ مَســعُودٍ ، وغيرِهما ، أنّهُم كَــانُوا إذا تَعلّمُــوا مِنَ النــبيِّ عَشــــرَ آيـــــاتٍ لم يُجاوِزُوهَا حتّى يَتعلّمُوا ما فِيها مِنَ العِلمِ والعَمَـلِ ، قَــــالُوا : فتَعلّمْنا القُـــرآنَ والعِلمَ والعَمَلَ جميعاً** " [1] .

إنّه منهج دقيق متـوازن يجمع بين قـوّة التلقّي وقـــوّة العمل ، وجدّيّة الأخذ وجدّيّة التفاعل ، ولا يغفل واحـــــــداً منها على حساب الآخر .!

وإنّ التنــافس الـذي نلحظه اليـوم في تخريج الحفّاظ فحسب ، لا يعـدو أن يكـون

1(?) ـ رواه الإمام عبد الرزّاق في مســنده عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الـرحمن السـلمي رحمه الله تعالى .

عملاً يتشـابه مع استنسـاخ أجهـزة مسـجّلة صـــمّاء ، تقـــرأ القـــرآن ولا تعي معانيه ، وترتّله ولا تتـــدبّره ، وتقف عند حروفه ولا تفقه حدوده ، وربّما استجرّتها مغانم الدنيا إلى اتّخاذ القـرآن حرفة وتكسّـباً ، فيطالها عندئذ الوعيد الإلهيّ المخيف : { **أفلا يَتـــدبّرُونَ القُــرآنَ أم علَى قُلُـــوبٍ أقفَالُها** } .!؟

فهل هذه رسالة القرآن الكــريم في الحيـــاة .؟ وهل بهـــذا المنهج يرتجى للأمّة أن تبلغ عزّاً ، أو تنهض من كبوة .؟!

إنّ النهضة القرآنيّة الحقّة هي الـــــتي يتــواكب فيها الاهتمــام بالحفظ والتجويد ، مع الاهتمــام بالتــدبّر والعمل ، والحــرص على تحويل هـــدي القـــرآن إلى ســـيرة تصطبغ بها حياة الإنسان وسيرته .

وإنّنا مـــــدعوون لتحقيق ذلك إلى أن نعيد النظر في طريقة تعاملنا مع القــرآن الكريم ، وأسلوب توريثه للجيل من بعدنا ، وليس من شـأن أولي العـزم من الرجـال أن يتهرّبــوا من تبعـات التكـاليف ، وجلائل الأعمال ، ويركنوا إلى ما هو أسهل وأخـفّ على قلـوبهم ، وأحظى لنفوسـهم ، وأظهر

لهم بين النـــــاس ، ولو لم يكن من ورائه كبيرِ فائدة أو جدوى .!

وبعد ؛ فإنّنا نتمنّى على الله تعالى أن يأتي يـوم نـرى فيه أخلاق القـرآن الكـريم وقيمه ، تهيمن على أهل القــرآن ، وتحكم حياتهم وسلوكهم ، وتنظر فيه الأجيـال إلى هذه الظواهر السلبيّة التي تعود إلى الخلل في منهج التلقّي ، كما ننظر اليـوم ونعجب إلى ما كـان عليه النـاس منذ جيل مضى ، وما ذلك على الله بعزيز .

الأدب شــعار المســلم في حياته ، مع الكبــير والصــغير والقــريب والبعيد ، لأنّ **الشــريعة الإســلاميّة كلّها آداب** : إذ هي عقيــدة وعبــادة ، وتشــريع وأخلاق ، وهي تئــول بعمومها إلى الأخلاق بمفهومها العامّ . فالعقيدة والعبـادة ، والتشـريع كلّها أنــــواع من الأدب مع الله تعــــالى ، ومع النفس ومع الآخرين .

ومن ثمّ فــإنّ الإمــام ابن القيّم رحمه الله يقول : " الأدب هو الدين كلّه " [1] .

مفهوم الأدب ومعناه العامّ والخاصّ :

جـاء في المصـباح المنـير : " قـال أبو زيد الأنصـاريّ : **" الأدب يقع على كـلّ رياضة محمودة ، يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل "** .

وقــال بعض العلمـاء : **" الأدب كلمة تجمع خصــــال الخــــير كلّها "** . أو هو اجتماع خصال الخير في العبد " [2] .

وقــال الحافظ ابن حجر رحمه الله : **" الأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً**

1(?) ـ كما في " تهذيب مدارج السالكين " ص/445/ .
2(?) ـ المرجع السابق .

" ، وعبّر بعضـــهم بأنّه الأخذ بمكـــارم الأخلاق " .

وقيل : " هو تعظيم من فوقك ، والرفق بمن دونك " [1] .

ـ فضل الأدب في الدنيا والآخرة :

قـال إبـراهيم بن حـبيب بن الشـهيد ــ وهو وأبوه من الثقات الأثبـات ــ : قـال لي أبي : **" يا بـــــنيّ ! ائت الفقهـــــاء والعلمـــــاء ، وتعلّم منهم ، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم ، فإنّ ذاك أحبُّ إليّ لك من كثير من الحديث "** .

وقال الإمـام ابن المبـارك رحمه الله : **" نحن إلى قليل من الأدب أحـــــوج منّا إلى كثير من العلم " .**

وروى أبو نعيم في ترجمة الإمام مالك أنّه قـال لفـتىً من قـريش : " يا ابن أخي تعلّم الأدب قبل أن تتعلّم العلم " .

وحكى صـنيع أمّه معه فقـال : " كـانت أمّي تعمّمـــني ، وتقـــول لي : " اذهب إلى ربيعة ، فتعلّم من أدبه قبل علمه " .

1(?) ـ الشـــيخ محمّد العوّامة " أدب الاختلاف في مســـائل العلم والدين " ص/61/ .

وقال الإمـام ابن المبـارك رحمه الله : " من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السـنن ، ومن تهــاون بالســنن عــوقب بحرمــان الفـرائض ، ومن تهـاون بـالفرائض عـوقب بحرمان المعرفة " .

ومن كلام علمــاء التربية : " **ما فــاز من فاز إلاّ بـالأدب ، وما سـقط من سقط إلاّ بسوء الأدب** " [1] .

وجاء عن بعض السلف : أنّ أهل الجنّة يــــدخلون الجنّة بعد فضل الله تعــــالى بأعمـالهم ، ويرثـون درجاتها ومنازلها على حسب أدبهم " .

ومن مواقف الســلف في أخذ طلاّبهم بـــالأدب قبل العلم : ما ذكـــره البرهـــان البقـاعيّ أنّه سـأله بعض الأعـاجم أن يقـرأ عليه ، فـأذن له ، فجلس متربّعـاً ، فـامتنع عن إقرائه ، وقال له : " **أنت أحوج إلى الأدب منك إلى العلم الــــذي جئت تطلبه** " [2] .

1(?) ـ المرجع السابق ص/168/ .

2(?) ـ ذكر ذلك العلاّمة المنـاويّ في فيض القـدير 1/225/ نقلاً عن كتاب : " أدب الاختلاف في مسـائل العلم والـدين " للشيخ محمّد العوّامة ص/167/ .

قصّة أستاذنا الشيخ عبد الرحمن زين العابدين رحمه الله مع بعض الذين يحملون الألقاب العلميّة ، ولم يتأدّبوا بآداب العلماء ، فرفض إقراءهم للنحو .

وعندما سئلت السيّدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت : " **كان ﷺ خلقه القرآن** " ، وفي رواية زيادة : يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه " .

فلو نظرنا إلى الأحكام والآداب التي جاء بها الإسلام ، وحثّنا على التحلّي بها ، لرأينا أنّها جمال الحياة وزينة الإنسان ، وسرّ قبوله بين الناس ومحبّة الناس له .

ـ **فضل حفظ القرآن الكريم بشهادة بعض المعاصرين** :

ـ **فمن أهمّ آداب طالب القرآن :**

1 ـ الإخلاص لوجه الله تعالى ، وابتغاء مثوبته .

2 ـ الامتثال والعمل . { **واتّقُوا الله ويُعلّمُكُم الله** } ومن كلام عيسى ابن مريم عليه السلام : " **من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم** " .

ـ منهج السلف في تلقّي القرآن وأخذه : وقد حَدّثَنا الإمامُ عبدُ اللهِ بنُ حبيبٍ ، أبو

عبــدِ الــرحمنِ السُّــلَمِيّ رحمــهُ اللــهُ عن طريقة السـلف في تلقّي القــرآن الكــريم وتلقينه فقَــالَ : " **حــدّثَنا الــذينَ كَـانُوا يُقرِئُونَنا القُـرآنَ ،** كعُثمـانَ بنِ عَفّـانَ ، وعبـدِ اللـهِ بنِ مَسـعُودٍ ، وغيرِهما ، أنّهُم كانُوا إذا تَعلّمُـوا مِنَ النـبيِّ عَشـرَ **آيـاتٍ لم يُجاوِزُوهَا حتّى يَتعلّمُـــوا ما فِيها مِنَ العِلمِ والعَمَلِ ، قَــالُوا : فتَعلّمْنا القُرآنَ والعِلمَ والعَمَلَ جميعاً** " [1] .

3 ـ الوقـــوف عند حـــدود القرآن والتأدّب بآدابه . فممّا وصف به عمر بن الخطّـاب : " **أنّه كـان وقّافـاً عند كتاب الله** " .

ـ أثر التـأدّب بـآداب القـرآن في حياة الشابّ وعلاقاته :

1 ـ أن ذلك يكـون برهـان صـدقه وإخلاصه : وكثـير من النـاس يلتبس عليهم أمر الإخلاص ، وتخـدعهم نفوسـهم ، وهـذا ميزان لا يخدع .

1(?) ـ رواه الإمــام عبــدالرزّاق في مســنده عن معمر عن عطاء بن السـائب عن أبي عبد الـرحمن السـلمي رحمه الله تعالى.

2 ـ توفيق الله تعـــالى له إلى المزيد من الخير ، لأنّ ذلك نوع من الشكر : { **لئِن شكَرتم لأزِيدَنّكُم** } .

3 ـ تأثّر الناس بسـلوكه ودعوته ، واستجابتهم لنصحه وتذكيره .

وعن عبد الله بن مسـعود قـال : " **ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا النــاس نــائمون ، وبنهــاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحــــون ، وببكائه إذا النــــاس يضــحكون ، وبصــمته إذا النــاس يخوضــون ، وبخشــوعه إذا النــاس يختالون** " .

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنّه قــال : " **إنّ من كــان قبلكم رأوا القـرآن رسـائل من ربّهم ، فكـانوا يتــدبّرونها بالليل ، وينفّـذونها في النهار** " .

وعن الفضــيل بن عيــاض رحمه الله تعـالى قـال : " **ينبغي لحامل القـرآن ألاّ يكــــون له حاجة إلى أحد ، من الخلفاء فمن دونهم** " .

وعنه أيضـاً قـال : " **حامل القـرآن حامل راية الإسـلام ، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو ، ولا يســـــهو مع من يســـهو ، ولا يلغو مع من يلغو ، تعظيماً لحقّ القرآن** " .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعـالى : **" من آداب حامل القـرآن أن يكـون على أكمل الأحـــــوال ، وأكـــــــرم الشمائل ، وأن يرفع نفسه عن كـلّ ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقـرآن ، وأن يكـــــون مصـــــوناً عن دنيء الاكتساب ، شريف النفس ، مرتفعاً على الجبـــابرة ، والجفـــاة من أهل الـدنيا ، متواضـعاً للصـالحين وأهل الخـــير والمســـاكين ، وأن يكـــون متخشّعاً ذا سكينة ووقار "** .

فقد جــاء عن عمر بن الخطّــاب أنّه قـــال : " **يا معشر القــرّاء ! ارفعــوا رؤوســـكم فقد وضح لكم الطريق ، فاســتبقوا الخــيرات ، ولا تكونــوا عيالاً على الناس** " [1] .

1(?) ـ الإمـام النـووي رحمه الله " التبيـان في آداب حملة القرآن " ص/43/ .

وأختم حديثي بكلمـات جامعة لحقـائق الأدب ، وصـفات المـؤمن المتـأدّب للإمـام الحارث المحاسبيّ رحمه الله يقـول فيها :

" واعلم أنّ في كلّ فكرة أدبـاً ، وفي كـلّ إشارة علماً ، وإنّما يميّز ذلك من فهم عن الله عزّ وجلّ مـراده ، وجـنى فوائد اليقين من خطابه .

وعلامة ذلك في الصـــــادق : إذا نظر اعتبر ، وإذا صـمت تفكّر ، وإذا تكلّم ذكر ، وإذا مُنِع صـــبر ، وإذا أُعطيَ شـــكر ، وإذا ابتُلي اسـترجع ، وإذا جُهِل عليه حلُم ، وإذا علِم تواضع ، وإذا علّم رفق ، وإذا سُـــئل بذل .

شِـفاءٌ للقاصـدِ ، وعـونٌ للمسترشِـدِ ، حليفُ صدقٍ ، وكهفُ برّ ، قريبُ الرضا في حَقّ نفسِه ، بعيدُ الهمّةِ في حقّ الله تعالى ، نيّته أفضل من عمله ، وعمله أبلغ من قوله ، موطنه الحـــقّ ، ومعقله الحيـــاء ، ومعلومه الورع ، وشاهده الثقة ، له بصائر من النور يبصر بها ، وحقـائق من العلم ينطق منها ، ودلائل من اليقين يُعبّر عنها " [1] .

1(?) ـ الحارث المحاسبيّ " رسالة المسترشـدين " ص/102 ـ 103/ بتحقيق الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة .

وختاماً ؛ فـإنّ صـورة الأدب قد تحـدّها الكلمـات ، وتنـبئ عنها الإشـارات ، ولكنّ حقيقته لا تحيط بها العبارات ، ولا تحصرها الكلمـات ، وإنّما هو سـرّ بـاطن ، وسـلوك حميد ظاهر ، ينتظمّ كلّ شـأن ويجمّل كـلّ حال ..

وينبغي أن يعلم كلّ طـالب للقـرآن أنّ الآداب العالية لا تنبت في النفس جملة واحـــــــدة ، وإنّما هي كالغرسة الطيّبة ، يتعهّـدها الـزارع يومـاً بعد يـوم ، ويكـون شديد الحرص عليها ، والحماية لها من كلّ ما يضـرّ بها ، حتّى يقـوى سـاقها ، ويشـتدّ عودها .. ولا شــيء يبلّغ الطــالب مــراده ، ويصل به إلى غايته كصـــــــدقه وإخلاصه ، يقــول الله تبــارك وتعــالى : { **والــذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنهـدِيَنّهُم سُـبُلَنا ، وإنّ الله لمَعَ المحسِنِينَ** (69) } العنكبــوت .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

إنّ اسْـتجابة الله تعـالى لـدعاء عبـاده منْ دلائل وحدانيّة الله تعــالى ، وقربه منْ عباده ، يقول الله سبحانه : { **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ ، فَلْيَسْـتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُـدُونَ** (186) } البقرة .

ويقـــول ســـبْحانه : { **أَمَّنْ يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَـعَ اللـهِ ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** (62) } النمل .

وإنّ أعظَمَ تعبـــير نبـــويّ عن أهمّيّة الـــدعاء في دين الله ومكانته ، هو قـــول النــبيّ : (**الــدعاء مُخُّ العبــادة**) [1] ، وفي حديث آخر : (**الدعاء هو العبادة**)

وحـديث النـبيّ مسـتوْحى منْ قـول الله تعـالى : { **وَقَـالَ رَبُّكُمْ : ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ**

1(?) ـ رواه الترمـذي بـرقم /3293/ـ ، وقـال : هـذا حـديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة .

2(?) ـ رواه أبو داود بـــرقم /1479/ والترمـــذي بـــرقم / 2973/ـ ، عن النعمـان بن بشـير رضي الله عنهما ، وقـال : حـديث حسن صـحيح ، وأخرجه ابن ماجة بـرقم /3827/ـ ، وابن حبّان وصحّحه ، والحاكم ووافقه الذهبيّ .

عَنْ عِبَــــادَتِي سَـــــيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِــرِينَ (60) } غـــافر ، إذ ربـــطَ الله تعـالى بين الـدعاء والعبـادة ربطـاً وثيقـاً ، فجعل الإعراضَ عن دعاء الله تعالى تكبّراً عَن عبادَتِه ، وأنّ جزاء من يكون كـذلك أن يدخل النار ذليلاً صاغراً .

علينا أن نثـير في نفسِ الطفل أسـئلة متنوّعة تتّصل بالدعاء : لماذا نــدعو الله .؟ وما معنى ذلك .؟ لأنّ الله تعالى يملك كلّ شـــيء ، ونحن فقـــراء إلى الله في كـــلّ شيء .. وإنّ من محبّة الله تَعالى لعبــاده ، ورحمته ورأفته بهمْ ، وهو الغـــنيّ عنهم أن فتح لهم أبواب فضله وكَرمه بالليل والنهَار ، وكلّما ازداد عبــاده رغبَــةً إليه زادهم منْ فضله وكَرمه ..

وينبغي أن يحفّظ الطفل جوامع الدعاء ، التي كان النبي يحبّها ويَــدعُو بها ، وهي كثيرة متنوّعة ، فمنها :

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الآخِـرَةِ حَسَـنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (201) } البقرة .

{ **رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَــبَقُونَا بِالإيمَــانِ ، وَلاَ تَجْعَــلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُـــــوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** (10) } الحشر .

{ **رَبَّنَا لا تُــــزِغْ قُلُوبَنَا بَعْـــدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ رَحْمَـةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** (8) } آل عمران .

{ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِــذْنَا إِنْ نَسِــينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلا تَحْمِـلْ عَلَيْنَا إِصْـراً كَمَا حَمَلْتَــــهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَــةَ لَنَا بِــهِ ، وَاعْـــفُ عَنَّا ، وَاغْفِــرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُـــرْنَا عَلَى الْقَـــوْمِ الْكَافِرِينَ** (286) } البقرة .

{ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَــنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِـــرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُــــونَنَّ مِنْ الخَاسِرِينَ** (23)}الأعراف .

ربّ اغفر لي ولوالــديّ ، ربّ ارْحمهما كما ربّياني صغيراً .

اللهمّ إنّي أســـألكَ الهــــدى والتقى والعفاف والغنى .

اللهمّ إنّي أسـألكَ العفـوَ والعافيـةَ في الدين والدنيا والآخرة .

اللهمّ اغفر لي وارْحمــني ، واهــدني ، وعافني ، وارزقني .

اللهمّ إنّي أعـــوذ بك من منكـــرات الأخْلاق والأعمال والأهواء .

اللهمّ ألهمــني رشــدي ، وأعــذني من شرّ نفسي .

يا مقلّبَ القلوب ثبّت قلـبي على دينك .

وينبغي على الوالـدين أن يـرى الطفل فيهم القدوةَ العمليّة ، في دعاء الله تَعالى في كـــلّ منَاســـبة .. وعليهم أنْ يعلّمــــوا الطفل من الدعاء ما يناسب سنّه .

فـــارفع أخي الوالد المـــربّي صـــوتَك بالدعاء أمامَ طفلك : على مائدة الطعَـام ، وعند دخول المسجد ، وعند الخــروج منه ، وفي ركوب السيّارة ، وعلّمه دعـاء دخـول الحمّام ، والخروج منه .

ـ ومنْ أهمّ ما يتّصل بالـدعاء : التربية على اللجـــوء إلى الله بالـــدعاءِ قبل الأخذ بالأســـباب المادّيّة ، فالـــدعاء منْ أقـــوَى الأسْباب وأهمّها .

وينبغي أنْ يُعلّمَ الطفل التـأدّبَ بـآدَاب الدعاء وهي كثيرة ، ومن أهمّها :

1 ـ التحقّق بالـــــذلّ والعبوديّة ، والافتقار إلى الله تَعالى .

2 ـ البـدء بالحمد لله تعـالى ، والثنـاء عليه ســبحانه بما هو أهله ، والصــلاة عَلى النبيّ ، والختم بذلك .

3 ـ التمـاس أوْقـات الإجابة وأماكنها ، وهي كثيرة ..

4 ـ التسـليمُ لله بعـدَ الـدعاء ، وعـدم استعجال الإجابة .

5 ـ أن لا يعْتدي في الدعاء ، ولا يـدعوَ بـإثمٍ أو قطيعة رحم ، ولا يـدعو على أحـدٍ بعَينه .

وينبغي أن يحدّث الطفـلُ بما جـاء في السـنّة النبويّة من قصص اسـتجابة الله تعالى لعباده ، وإكرامهم بكشف غمّـاتهم ، وتفريج كرباتهم ، ونصْرهم على أعـدائهم ، وما جـرى لنبيّنَا ﷺ ، ولأصـحَابه الكـرام ، وللأمم السابقة من ذلك ..

وينبغي أن يُعلّمَ الطفلُ أنّ منْ بركات الـدعاء رفع البلاء ، ودفعه عن المـؤمن ، وأنّ ذلك نـوع من اسـتجابة الله تعـالى لدعاء العبد ..

وأن يُعلّمَ أنّ منْ شروط استجابة الله للـدعَاء أن يتحـرّى المـؤمن الحلالَ في كسْـبه ومأكله ومشـربه ، فلا يكسب ولا يأكل ولا يشرب إلاّ حلالاً ..

وينبغي أن يُعطى الطفـلُ ما يناسب سنّه من كتب الأدعية والأذْكار ، ليعود إليها عند الحاجة ، ويحفظ منها ..

هذا عيدنا .!

بعد رمضـان من كـلّ عـام ، يهـلّ هلال العيد ، يحمل للصـائمين العابـدين المتّقين بســـمة الأنس والرضا ، وتهنئة القبـــول والندى ، ورسالة الخير والهدى ، كما حمل هلال رمضـــان رســالة التربية والتغيـــير ، وترقية الإيمان والتجديد ، فشـحذت الهمم والعـــزائم ، وفعلت فعلها في القلـــوب والضـــمائر ، وأحيت الأرواح ، وطهّـــرت السرائر ..

إنّ العيد مباركة ســـماويّة علويّة لمن ســــمت أرواحهم حتّى نافست الملائكة الأطهـار في سـموّها وشـفافيّتها ، وتكرمة إلهيّة عاجلة ، لمن فاز في مدرسة الصـيام ، فقـــوي إيمانه ، وازداد يقينه ، وتوقّـــدت عزيمته ، وسـمت همّته ، وتحـرّرت إرادته من أسر أهوائه وشـــهواته .. إنّه انتصــار المعـاني على المظـاهر ، والحقـائق على الصور والرسوم ..

لمّا قـــدم النـــبيّ المدينة كـــان لهم يومـان يلعبـون فيهما ، فقـال : (**إنّ الله**

قد أبدلكم يومين خيراً منهما ؛ يــوم الفطر ، ويوم الأضحى) [1] .

فأبــدل الله هــذه الأمّة بيــومي اللعب واللهو يـومي الـذكر والشـكر ، والمغفـرة والعفو . ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعيـاد : عيد يتكرّر كلّ أسبوع ، وعيـدان يأتيـان في كـلّ عـامٍ مـرّة مـرّة ، من غـير تكـرّر في السـنة ، فأمّا العيد المتكــرّر ، فهو يــوم الجمعة ، وهو عيد الأســبوع ، وهو مـترتّب على إكمال الصلوات المكتوبات ..

وأمّا العيـدان اللـذان يـأتي كـلّ واحـدٍ منهما في العام مرّة واحدة ؛ **فأحـدهما** : عيد الفطر من صوم رمضـان ، ويـأتي بعد أداء الركن الثالث من أركان الإسلام ، فإذا أدّى المسلمون ما افــترض الله عليهم من صيام شـهر رمضـان ، واسـتوجبوا من الله بمنّه وفضـله المغفـرة والعتق من النــار ، حــقّ لهم أن يفرحــوا بعيــدٍ يجتمعــون فيه على شــكر الله تعــالى وذكــره ، وتكبــيره على ما هداهم إليه ..

1(?) ـ رواه النســـائيّ 3/179/ في العيـــدين ، وأحمد في المســـــند 3/103/ و 178 و235 و250 والحـــــاكم في المستدرك ، وصحّحه على شـرط مسـلم ، ووافقه الـذهبيّ ، وكلّهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

والعيد الثاني : عيد النحر ، وهو أكبر العيــدين وأفضــلهما ، وهو مــرتّب على إكمـال الحجّ ، الـذي هو الـركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه ، فإذا وقف الحجّـاج بعرفة ، ومنّ الله عليهم بمغفـرة ذنـوبهم ، وعتق رقـابهم من النـار حـقّ لهم أيضـاً ، وحقّ لأهل الأمصار معهم أن يفرحـوا بعيـدٍ يجتمعون فيه على شكر الله تعالى وذكـره ، وتكبـيره على ما هـداهم إليه ، والتقـرّب إليه بالنسك ، وهو إراقة دماء القرابين ..

وفي كلا العيـدين تتأكّد زيـارة القبـور للاعتبـار والاتّعـاظ ، وزيـارة الأقَـارب والأرحـام ، والتواصل بين الأصـحاب والجيران ..

لقد راد الله تعـالى لأمّة الإسـلام أن تكون متميّزة في كلّ شيء .. في عقيدتها وعباداتها ، وفي تشـريعاتها وأحكامها ، وفي أخلاقها وعاداتها ، وفي ترويحها عن نفسها ولهوها ..

إنّ العيد في الإسلام عبادة يتقـرّب بها المؤمنـون إلى ربّهم ، ولكنّها عبـادة من لـونٍ آخر ؛ إنّه عبـادة تجمع بين اسـتجمام الأرواح ، وبهجة النفوس ، ونشاط الأجساد ، وشـكر الله على عظيم نعمه ومننه .. إنّه

فـــــــــرح بفضل الله ورحمته : { **قُل : بفضل الله وبرحمته فبــــــــــــذلك فليفرحـوا ، هو خـير ممّا يجمعـون** (58) } يونس .

قـال مخنف بن سـليم ، وهو معـدود من الصــحابة : " **الخــروج يــوم الفطر يعدل عمرة ، والخـروج يـوم الأضـحى حجّة** " .

وعن سعد بن أوس الأنصـاريّ قـال : قــال رســول الله : (إذا كــان يــوم عيد الفطر ، وقفت الملائكة على أبـــــــــواب الطـــــرق ، فنـــــادوا : اغـــــدوا يا معشر المسلمين ! إلى ربّ كريم ، يمنّ بــالخير ، ثمّ يــثيب عليه الجزيل ؛ لقد أمــرتم بقيــام الليل فقمتم ، وأمرتم بصيام النهار فصمتم ، وأطعتم ربّكم ، فاقبضوا جـوائزكم ، فـإذا صلّوا نادى منــادٍ : إلا إنّ ربّكم قد غفر لكم ، فارجعوا راشدين إلى رحالكم ، فهو يــوم الجائزةِ ، ويسمّى ذلك اليوم في الســماء : يوم الجائزة) [1] .

1(?) ـ رواه الطـــبرانيّ في الكبـــير ، كما في الـــترغيب والترهيب 2/153/ .

فهذه أعياد المسلمين في الـدنيا وكلّها عند إكمـال طاعة الله تعـالى ، ونيلهم لما وعدهم الله تعالى من الفضل والمثوبة ..

ومن ثمّ فإنّ المؤمن حين يفـرح بالعيد لا تســتبدّ به الفرحة ، فينسى التنقيب عن أولئك البائسين المحـرومين .. إنّه لا ينسى اليتيم المحروم من عطف الأبـوّة الحانية ، ولا ينسى البائس الفقير ، وقد حـرم سـعة العيش ورغـــده ، ولا ينسى الأرملة الـــتي حرمت من زوجها ، وتوالت عليها الشـدائد والمحن ، ولا ينسى المـــريض الـــذي فقد العافية بعدما كـان يرفل في بحبوحة ثيابها ، فأصـبح حبيسـاً في سـريره ، يتلـوّى من مرضه ..

ولا ينسى قبل ذلك كلّه وبعـــده أولئك المضـــــــــطهدين في دينهم من إخوانه المسـلمين في مشـارق الأرض ومغاربها ، الـذين لا جريـرة لهم إلاّ أن يقولـوا : ربّنا الله ..

إنّ العيد في الإسلام غبطة النفس في الـدين والطاعة ، وبهجة الـروح في الـدنيا والحياة ، ومظهر القوّة والإخاء ، إنّه فرحة بانتصـــار الإرادة الخيّـــرة على الأهـــواء والشـــهوات ، وبـــالخلاص والتحـــرّر من

إغواءات شياطين الإنس والجنّ وأحــابيلهم ، وهو الرضا المستلذّ بطاعة المولى تبارك وتعـالى ، والرجـاء الواجف بوعـده الكـريم بمغفرة الذنوب ، والعتق من النار ..

وإنّ من أراد معرفة أخلاق الأمّة أيّة أمّة .. فلينظر إليها في أفراحها وأعيادها ، إذ تنطلق فيها على فطرتها وســــجيّتها ، وتكشف عاداتها عن دخائلها وطبيعة تربيتها ، والأمّة الجــادّة ذات الرســالة هي التي تكـون في فرحتها سـامية في أخلاقها إلى أرفع ذروة ، وتكـــــــون في بهجتها متحقّقة بالإخــاء إلى أبعد مــدى ، فيتجلّى في العيد من توادّها ، وتعاطفها ، وتراحمها ، وصـفاء علائقها ما يضـفي على العيد من المعاني ما يجلّ عن الوقـوف عند المبـاهج الظــاهرة ، والاهتمــام بالزينة الفــاخرة .. وإنّ الأمّة الــتي تنسى في غمــرة أفراحها هـؤلاء وأمثـالهم ، لا يصـدق عليها أنّها أمّة حيّة فتيّة ، يحـقّ لها أن تتبـاهى بكيانها بين الأمم ، ولا يكتب لها أن تســــبق في أيّ مضمار ..

أيّها المؤمنون الصـائمون المتّقـون الموفّقـون ! هـــذا عيـــدنا ، وهـــذه بعض معانيه ، فهل رأيتم في الدنيا عيداً كعيدنا .؟!

[illegible]

أطفالنا والعيد .؟

ما أحوجنا نحن المســـــلمين أن نفهم أعيادنا فهمــاً صــحيحاً ، يتجــاوز الصــورة الشـكليّة المألوفة ، إلى الحقيقة الشـرعيّة المرادة من العيد ، فالعيد هو المعنى الذي يكـون في اليـوم ، لا اليـوم نفسه بما فيه من صباحٍ ومساء .. وكما يفهم الناس هــذا المعنى يتلقّون هذا اليوم ..

والعيد في أهمّ معانيه إشــعار الأمّة أنّ فيها قوّة تغيير الأيّام ، وملئها بمعانٍ جديدة ، لا إشعارها أنّ الأيّـام تتغيّر وتتبـدّل ، وهو يـــوم تَعـــرضُ فيه الأمّة جمـــال نظامها الاجتمـاعيّ ، فيكـون يـوم الشـعور الواحد في نفـوس الجميع ، والـروح الواحـدة في حياة الجميع ، والكلمة الواحدة على ألسنة الجميع : الشعور بالقدرة على تغيير الأيّـام ، لا القــدرة على تغيــير الثيــاب ، والــروح التي تقارب بين القلــوب ، وتمحو الفــروق بين أبناء المجتمع ، لا المظاهر التي تكسر قلوب الضعفاء ، وتصرخ في وجوههم أكثر من أيّ يــومٍ في حيــاتهم ، والكلمة الطيّبة الـتي هي شـعار الأمّة في جميع علاقاتها ..

بــدءاً من ذكر اسم الله على كـلّ شــيء ، وإلقاء السلام على كلّ مسلم ..

إنّ العيد يـــوم شـــعور كـــريم بالرضا والقبـــــــــول ، يغمر الله به الأمّة بعد أن أكرمها بطاعته ، ومنّ عليها بـــالتوفيق إلى أداء الواجب كما أمرها ..

وهو يـــوم بهجة القلـــوب والأرواح .. يتجلّى فيه تقــارب قلــوب الأمّة ، ووحــدة مشاعرها ، وصفاء علاقاتها ..

والعيد يعلّمنا شــكر المحسن ومكافأته عقب ما يقــوم به من عمل ، أو يــؤدّي من واجب ..

وفيه تعليم للأمّة وتربية أن تتّسع روح الجــوار وتمتــدّ ، حتّى يرجع البلد العظيمُ ، وكأنّه لأهله دار واحدة ، يتحقّق فيها الإخــاء بمعنـــاه العمليّ ، وتظهر فضــيلة الإخلاص مستعلنة للجميع ، ويهـدي النـاس بعضـهم بعضــاً هــدايا القلــوب المخلصة المحبّة ، الـتي لا يحـول بينها وبين اتّصـالها ببعضـها شيء من أمر هذه الدنيا ..

وليس العيد لمن لبس الجديد ، إنّما العيد لمن خـاف يـوم الوعيد ، وكـان ممّن طاعاته تزيد ..

ليس العيد لمن تجمّل بالثيـــــــــــاب والركـــــوب ، إنّما العيد لمن غفـــــرت له الذنوب ..

ليس العيد لمن قتل أيّامه بـــالغفلات ، إنّما العيد لمن استعدّ لما هو آت ..

ولقد عرف سلف هذه الأمّة العيد بهذه المعاني .. فغرسوها في أطفالهم ، فكانت الأمّة أمّة الحقـائق والمعـاني السـامية ، لا أمّة المظاهر العابثة والحياة اللاهية ..

رأى عمر بن عبد العزيز أحد أولاده ليلة العيد عليه ثيــاب خلقة ــــ أي بالية ـــــ فدمعت عينه ، فانتبه الغلام لوالده ، فقـال له : ما يبكيك يا أبتِ .؟ فقـــــال له : رأيت عليك ثياباً خلقة ، وغداً عيد ، فخشـيت أن تـرى الأطفـال في ثيـابٍ جديـدة ، فينكَسرِ قلبك .. فقـــــال : " **ياً أبتِ إنّما ينكسر قلبك من أعدمه الله رضاه ، أو عــقّ أمّه أو أبــاه ، وإنّي لأرجو أن يكــون الله راضـياً عـني برضـاكما عـني** .. فبكى والـــده فرحـــاً بجوابه ، واحتضـــنه ، وقبّل ما بين عينيه ، ودعا له بخـير ، فكـان من أزهد أولاده من بعده ..

دخل بعض أصــحاب عليّ عليه يــوم عيد الفطر ، فـــرأوه يأكل خـــبز شـــعير ،

فقـالوا له : يا أمـير المؤمـنين خـبز شـعير يوم عيد .؟! فقال لهم :

" اليـــوم عيد من قبل بـــالأمس صيامه وقيامه ، اليوم عيد من قبلت بالأمس طاعاته ، اليـوم عيد ، وغـداً عيد ، وكـــلّ يــومٍ لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد .. " .

واليــوم يســتطيع الوالــدان والمربّــون بحكمتهم أنْ يغرســــــوا في نفس الطفل هـــــذه المعـــــاني الإيمانيّة الكريمة ، وما يشــبهها ، كما يســتطيعون تدريبه بطريقة عمليّة على تنفيـذها بنفسه ، والالـتزام بها .. ولابدّ للوالدين والمـربّين من اتّبـاع خطّة عمليّة مدروسة بعناية لغرس هذه المعاني الإيمانيّة وما يشبهها ، وتعهّـدها في نفـوس الأطفــال ورعايتها ، ليكــون العيد ترويحــاً للقلوب والنفوس أشبه بالجـدّ ، وجـدّاً في الحيــاة يزينه الــترويح العــذب ، والســموّ الرحب ..

ـ ما ضـرّك أيّها الوالد الكـريم ، وأنت تشــتري لعبة العيد لطفلك أن تشــتري له لعباً إضافيّة : اثنـتين أو ثلاثـاً ، ليهـديها إلى من يختار من أطفال أقاربه أو جيرانه ..

ـ ما ضـــرّك أيّها الوالد الكـــريم ، أن تصـحب طفلك لعيـادة أطفـال المسـلمين المرضى في المستشــــفى ، وليكن معهم شـــيء من الحلـــوى أو الشـــوكولاتة ، أو الهدايا المعبّرة ، يقدّمها طفلك بيده لأولئك المرضى ، ويتـــــــذكّر ما هو فيه من نعمة العافية ..

ـ عــوّد طفلك الأكــبر أن يقــدّم هديّة لأخيه الأصغر منه يــوم العيد ، واحــرص أن يختارها بنفسه ، ويدفع ثمنها للبائع بيده ..

ـ ذكّر أطفالك أيّها الوالد المــربّي ! أنّ لهم أمثــالاً من أطفــال المســلمين ، في شــتّى بقــاع الأرض ، لا يعرفــون للعيد أيّ معنى ، ويعيشون حياة البؤس والحرمـان ، والقهر والإذلال ..

تغرّب الشيخ علي الطنطاويّ مرّة عن أسـرته ، وأدركه عيد الفطر لأوّل مـرّة في حياته ، وهو بعيد عن زوجته وأطفاله .. فأحسّ أنّ العيد يوماً للحزن والكآبة بعدما عرفه سنين عديدة يومـاً للبهجة والسـرور .. فقرّر أن يلــزم بيته ويستســلم لأحزانه ، ويعيش مع ذكريــــــات ســـــــالف أيّامه .. فتضــاعف الحــزن عليه ، وتوافــدت الكآبة من كـــلّ الأطــراف إليه .. فلم يـــرتضِ له

إيمانه أن يستسـلم لهـذه الحـال .. فخـرج من بيته إلى بعض الحـــــدائق العامّة حيث تكــــون الأسر مع أطفالها تبتهج بالعيد كما ألفت واعتــــادت .. فــــرأى الفرحة تعمّ الوجوه ، والبسـمة ترتسم على الشـفاه .. فتــــــذكّر زوجته وأطفاله وهو بعيد عنهم ألوف الأميال ، فترقرقت الدمعة في عينيه ، واجتاحته موجة من الشــوق والحــزن لم يعرف لها طعماً من قبل .. فغرق في لجّة من أحزانه وأحْلامه .. وفجـــــأة .. وقعت عيناه ثلاثة أطفـال مع أمّهم ليسـوا كسـائر الأطفـــال ، ترنو أعينهم إلى الأطفـــال من حــــولهم ، وليس في أيــــديهم شــــيء من الحلــوى الـتي يأكلونها ، أو الألعــاب الــتي يبتهجون بها .. فما أشبه هؤلاء الأطفال مع أمّهم بأطفاله الثلاثة مع زوجته الصـــــابرة المرابطة .. فتَوجّه بغـــير شـــعور منه إلى أمّهم ، وقدّم لها مبلغاً من المـال كفـاء ما يقدّمه لأطفاله في مثل هذا اليـوم ، وقـال لها : هل تقبلين يا سيّدتي هذا المــال هديّة من أطفالي لهؤلاء الأطفال ! لتشتري لهم ما شــئت من الحلــوى والألعــاب كســائر هـــؤلاء الأطفـــال .؟! فأخذته باســـتحياء ، وأخذت تشـكره بكلمـات ، لا يعـرف شـيئاً

من معناها .. وغـابت عنه قليلاً مع أطفالها ، ثمّ عـادت والفرحة تملأ وجـوههم ، وتهـزّ أعطافهم ، في أيــديهم بعض اللعب ، وفي أفـــواههم تتحـــرّك الحلـــوى ، ويســـيل بها لعابهم ، وقد طـال عهـدهم بها .. فـدمعت عينـــاه مـــرّة أخـــرى .. ولكنّها دمعة البهجة والغبطة .. وهو يـــــرى أولئك الأطفـــــال البائسين يفرحون بالعيد كما يفرح إخوانهم ، فيعوّضـــــونه ما افتقد من قـــــرب زوجته وأطفاله ..

إنّ الطفولة العذبة البريئة تضـفي على العيد مســـحة من الجمـــال لا يعرفها العيد بدونها .. ولكنّها أصبحت هذه الأيّام كسيفة باهتة ، وهي تعيش المـــــآتم تلو المـــــآتم ، تروي قصصـها الأليمة الحزينة ، بمـداد من دمها الطهـور ، وهو يسـفح كـلّ حين على ثرى فلسطين الحبيبة المغتصـبة ، ويمـتزج بـــــدموع اليتـــــامى ، وأنّـــات المنكـــــوبين والمشرّدين ، وتتردّد له أصــداء مماثلة في شـتّى بقـاع الأرض .. إنّ عيـداً بغـير بهجة الطفولة هو يوْم بلا شمس السماء ..

* لَبّيكَ اللهمّ لَبّيكَ

سبحان من جعل في بيته الحرام من الآيات البيّنات ما يزيد المؤمنين إيماناً ، ويملؤهم حبّاً وقرباً ، وشوقاً لزيَارة بيته العتيق وحنيناً .. فلا تزال الأفئدة تهوي إليه وتهواه ، ولا يزال بيته العتيق عامراً بزوّاره وذكر الله ، ولا تزال أمّة الإيمان والتوحيد بخير وقوّة ما كان البيت قياماً للناس ، ومَثابة لهم وأمناً ..

ولقد روي أنّ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عندما أتمّ بناء البيت العتيق أمره الله تعالى أن يَدعوَ الناسَ إلى حجّه ، فقال له : يا ربّ وما يبلغهم صوتي أوْ ندائي .؟ فقال له الله تعالى : " عليك الدعاء ، وعلينا البلاغ " ، فقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام قريباً من البيت ، ونادى بأعلى صوته : " يا أيّها الناس ! إنّ الله تعالى بنى لكم بيْتاً فحجّوه " ، فلَبّى الناس نداءه بإذن الله تعالى ، وهم في أرحام الأمّهَات وأصلاب الآباء ، فمن لبّى مرّة حجّ مرّة ، ومن لبّى أكثر حجّ على عدد ما لبّى .. وذلك ما يشير إليه قول الله تعالى : { **وَأَذِّنْ فِي**

النَّاسِ بِـالحَجِّ يَـأْتُوكَ رِجَـالاً ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيــقٍ (27) } الحجّ .

وتـوارث النـاس هـذه التلبية والنـداء ، وإعلان التوحيد الخـالص من كـلّ شـائبة ، منذ عهد نــبيِّ الله تعـالى إبــراهيم الخليل عليه الصـلاة والسـلام ، إلى ما شـاء الله ، ثمّ حرّفت التلبية ، وعبث الشيطان بعقول أهل الجاهليّة ، فأدخل عليها الوَثـــــــنيّون كلمات الكفر ، وخلطوا التوحيد بالشــرك ، ممّا جعلها متهافتة متناقضة ، ثمّ ردّها النبيّ المصـطفى إلى ما كـانت عليه من مبدأ الحقّ وجلاله ، وصفاء التوحيد ونوره ، فكــــانت بهـــذه الجمل العذبة الجميلة : " **لَبّيكَ اللهمّ لَبّيكَ ، لَبّيكَ لا شَريكَ لَكَ لَبّيكَ ، إنّ الحمدَ والنعمةَ لَكَ والمُلك ، لا شَريكَ لَكَ** " ، شعاراً للإيمــان ويقينه ، وتعبيراً عن منهج الحقّ ومضمونه ..

وأصبحت هذه الكلماتُ الإيمانيّةُ العذبةُ شــعارَ الحجّـاجِ والمعتمــرين ، وعهـداً لله يعلنونه عند بيته العــتيق ، مِن لــدن ســيّد الأنبياء والمرسَلين إلى يومنا هذا ، وإلى ما يشاء الله تعالى ..

ولقد ثبت أنّ المصطفى لزم هذه الصيغةَ من التلبية في حجّة الوداع ولم يخرج عنها ، بينما أثر عن بعض الصحابة صيغ أخرى من التلبية ، مشابهة لها ، وزيادة عليها ، فأقرّهم النبيّ عليها ، ولم ينكرها عليهم ..

وفي التلبية تتكرّر كلمة : " **لبّيك** " أربع مرّات ، أفهذا تكرار جاء للتوكيد ، أم أنّه مقصود مَحسوب ، وله في كلّ مرّة معنى جديد .؟ وما حقيقة هذه التلبية .؟ وماذا يحمل هذا التكرار منْ معانٍ ، تحت هذا النشيد الإيمانيّ العذب .؟!

وبالرجوع إلى المعاني اللغويّة التي يشملها فعل " **لبّى** " نجد أنّه يحمل جملة من المعاني الجميلة ، يشير إليها ، ويعبّر عنها ، وكلّها متّصلة متقاربة :

1 ـ فهو منْ لبّ بالمكان وألبّ أي : أقام به ، وألبّ على كذا إذا لزمه ولم يفارقه ، فإذا دعا الرجل صاحبه أجابه : " لبّيك " أي أنا مقيم عندك ، ثمّ وكّد ذلك : " بلبّيك " أي إقامة بعد إقامة ، ولم تستعمل " **لبّيك** " إلاّ بمعنى التكرار ، لأنّها في الأصل مثنّى أضيف إلى كاف الخطاب : أي إجابةً لك يا ربّ بعد إجابة ،

وإقامـــةً على أمـــرك ، ومَا يرضـــيك بلا مفارقة .

2 ـ وهو بمعـنى الاتّجـاه والقصد ، من قـــــولهم : داري تلبّ دارك ، أي تواجهها ، والمعـــنى على ذَلك في التلبية واضح ، أي أنا مواجهك بما تحبّ ، إجابة لك ورغبة ، فهو يعبّر عن وحدة التوجّه وصدقه وقربه .

3 ـ وهو بمعـنى إخلاصي لك يا ربّ .! من قـــولهم : حَسَـــبٌ لُبَــابٌ ، أي خـــالصٌ محْض ، ومنه اللبّ من كــــلّ شـــيء وهو خالصه وما ينتقى منه ، ولـــذلك ســـمّي العقْل لبّاً ، ورجل لبيب أي عاقل ، وخالص كلّ شيء لبابه .

4 ـ وهو بمعـنى محبّـتي لك يا ربّ .! وشـوقي وودّي ، من قـولهم : امـرأة لَبّة ، إذا كــــانت محبّة لولـــدها ، عاطفة عليه ودودة ، ومحبّة لزوجها ثابتة على ودّه أبــداً .

وقـــال بعض العـــرب : " **لَبَّي يـــديك** " بمعـنى أطيعك ، وأتصـرّف بإرادتك ، وأكـون كالشيء الذي تصرّفه بيديك كيف شئت ..

فلبّيـــكَ اللهمّ ! لبّيك ! توحيــــداً خالصاً من كلّ شائبة من شـوائب الشـرك ما علمنا منها ، وما لم نعلم ..

ولبّيــكَ اللهمّ ! طاعة واســتجابة ، وعبوديّة تامّة ، خالصة من نزغات الهـوى ، وشوائب العصيان .!

ولبّيــكَ اللهمّ ! بكياننا كلّه : ذكــراً وشكراً ، وحبّاً وشَوقاً ، ورغباً ورهباً ..

ولبّيـــكَ اللهمّ ! عهـــداً وولاءً .! وتوبة وإنابة ، ألاّ نحيـدَ عن طاعتك .. وألاّ نخـرج عن إجابة دعوتك ، والاستجابة لدينك ..

ولبّيكَ اللهمّ ! لا حـول لنا إلاّ بحولك ، ولا قـوّة لنا على طاعتك إلاّ بك .! تبـارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك .

* حقائق تربويّة في مشاعر الحجّ ومناسكه

إنّ لكـلّ ركن من أركـان الإسـلام من الحقائق والأبعاد ما يجعل المؤمن المتـدبّر ، البـــاحثَ المتفكّـــرَ يقف أمـــام عظمة الإســـــلام مشـــــدوهاً ، لا ينقضي عجبه وانبهاره بهذا الدين العظيم ، حتّى يبـدأ من جديد .. ثمّ لا يكاد يبدأ انبهاره مـرّة أخـرى حتّى يتعاظم من جديد ويتنامى ، ويتبدّى له منها جديد بعد جديد ، وكأنّه لم يعرف هـذه الحقائق من قبل ، ولم يألفها ..

وكـان حَسـبُ الإنسـان إذا أراد صـلاح حياته وسعادته ، ورشْـدَه وهدايته أنْ يكلّف بركن واحدٍ من هذه الأركــان ، وهي تحمل له هــذا الخـــير كلّه ، فكيف وقد منّ الله تعالى عليْه بهذه الأركان كلّها ، وأكرمه بما فيها من نفحات وأنـوار ، وبركـات وأسـرار .؟! ثمّ العجب الذي لا ينقضي من حاله أنْ يلهث وراء الســـعادة في غـــير دين الله واتّباع منهجه ..

وإنّ كلّ عبادة من العبادات لهي أشـبه بمائدةٍ منْ موائد الكـرَم الإلهيّ ، قد مـدّها الله تعـالى لعبـاده ، ودعـاهم إليها ، فكـلٌّ ينـــال منها على قـــدر صـــدقه وإخلاصه ،

وعزيمته واجتهـاده ، وعطـاء الله تعـالى لا ينفد ولا يغيض : { **كلاًّ نمـــدّ هــــؤلاء وهـؤلاء من عطــاء ربّك ، وما كــان عطاء ربّكَ محظوراً** (20) } الإسراء .

فلنقف عند بعض هـــذه الحقـــائق والمعــاني ، الــتي يريد الله لنا أن نــتربّى عليها ، وتنغرس في كياننا الـذاتيّ ، وحياتنا الاجتماعيّة وعلاقاتنا ، ونحن نقرّر سلفاً أنّنا لا نملك إلاّ فكر المخــلّ ، وجهد المقــلّ ، ولكنّ القليل من رشــفات الحــقّ يحــيي مــوات القلـوب ، ويـردّ غلّة المسـغوب ، ولعـــلّ ما غفلت عنْه قد يكـــون أهمّ ممّا التفت إليه وذكـرت ، وفـوق كـلّ ذي علم عليم ، وســـبحانك اللهمّ لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا ، إنّك أنت العليم الحكيم .

1 ـ ففي الحجّ ما يـذكّر بـالبعث والنشور : فثيـاب النـاس البيضـاء أشـبه بأكفــان المــوتى ، وخـــروج النـــاس إلى عرفات أشبه بـورودهم إلى أرض المحشر ، واشـتغال كـلّ امـرئ بنفسه يـذكّر بحـال النـاس في ذلك اليـوم الـرهيب : { **يَـوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** (34) **وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** (35) **وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** (36) **لِكُلِّ امْرِئٍ**

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيـهِ (37) } عبس .

2 ـ وفي الحجّ : آيــات بيّنَــات ، ودروس نافعات ، وعظـات بالغـات ، تصل الحاضر بالماضي ، وتربط المــــؤمن بقافلة الإيمان الضاربة جذورَها في أعمـاق التــاريخ الإنســانيّ ، فتجعل الماضي البعيد حاضراً مشهوداً ، ممّا يزيد المـؤمن إيمانـاً ، ويملأ التقيّ خشية وشهوداً .

3 ـ وفي الحجّ : تتجلّى المساواة الإنسانيّة ، وهي في مبادئ الإسلام حقيقة من أجلى حقائقه ، لا تقبل الجدل أو المماراة : ولا تـزال البشـريّة تتطلّع إلى هـذا الأفق السـامي الـذي بلغته أمّة الإسـلام بمبـادئ دينها ، فلا تقـدر عليه ولا تســــــــتطيعه ، ولا تقاربه ولا تدانيه ، وهيهـــات لها ذلك ! لأنّها تريـــده بمنَـــاهج مبتوتة عن هداية الله ، أو أنّها تريـــــــــده ممزوجاً بأهوائها ونزواتها كشـأنها في كـلّ ما تسعى وتريد ..

4 ـ وفي الحجّ : تربية للمــؤمن على التأسّـــي بـــالنبيّ في أقواله وأفعاله وأحواله ، والحـــــرص على دقّة الاتّبـاع ، يقـول الله تعـالى : { لقد

كـان لكم في رسـول الله أسـوة حسـنة ، لمن كـان يرجو الله واليـوم الآخر ، وذكر الله كثـيراً (21) } الأحـزاب ، وعنـدما حجّ النبيّ قال لأصـحابه وأمّته كلّها : (**خذوا عنّي مناسـككم**) [1] ، ولقد أصـبح كـلّ مـؤمن يخشى الله تعـالى ويتّقيه يحـرص على أن يترسّم هـدي نبيّه في كـلّ شـأن من شـئون حجّه ومناسـكه ، وذلك ما ينعكس على حياته كلّها بـالخير والتوفيق والسداد .

5 ـ وفي الحجّ : يتجلّى وضـوح الهدف في الحياة ، وهذا ما نلاحظه في التوجيه القرآنيّ في آيات الحجّ ، إذ يقـول الله تعـالى : { **فَـإِذَا قَضَـيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللـهَ كَـذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ** (200)ـ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ** (201)ـ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ** (202) } البقرة .

1(?) ـ جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الحجّ .

ويقول سبحانه : { **قُلْ : إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـاي وَمَمَـاتِي للـهِ رَبِّ الْعَالَمِين** (162)ـ **لا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْـلِمِينَ** (163)ـ } الأنعام .

وما أكـثر الـذين يخسـرون آخِـرتَهم ، لأنّهم عاشوا هـذه الحيـاة ، ولا وضـوح لهم في شيءٍ مِن أهدافها ومقاصدها ، فعاشوا لا يعرفـــــون إلاّ اللهو واللعب ، وانقضت أعمـــارهم على ذلك ، وتنـــاولهم وعيد الله تعـــــالى في قوله : { **أَفَحَسِـــبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا** لا **تُرْجَعُـونَ** (115)ـ **فَتَعَالَى اللـهُ المَلِـكُ الحَـقُّ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** (116) } المؤمنون .

6 ـ وفي الحجّ : تتجلّى وحــدة الأمّة ، ووحـدة الهـدَف والغاية ، وهو ما عبّر عنه النبيّ في خطبَة حجّة الـوداع فقـال : (**يا أيّها النــاس ! إنّ ربّكم واحد ، وإنّ أباكم وَاحد** ..) .

7 ـ وفي الحجّ : دعــوة جمَاعيّة عامّة إلى دين الله تعـالى ، فمظهر الأمّة وهي تـــؤدّي المناسك بهـــذه الصورَة الجماعيّة التي يسودها الودّ

والرحمة تفتقـــده الإنســـانيّة في مجتمعاتها المعاصـــرةَ وعلاقاتها ، ولم تســـتطع الوصـــول إليه على الـــرغم ممّا ملكت من وسائل العلم والتقدّم المادّيّ .. وهـذا المظهر يحمل رسـالة الإسـلام إلى الإنسانيّة كلّها .. وإنّ النـاظر إلى الأمّة في حجّها يحسّ ـــ كما عبّر بعض الغــــربيّين الذين أسلموا ـ **أنّ السـعادة تشـعّ من كيانها الـــــذاتيّ وداخلها** ، فلا يملك نفسه إلاّ أن يتأثّر بها ، ولكنّ المخذول من خذله الله .

8 ـ وفي الحجّ : تـؤجّج ذكريـات المكـان الحبَّ وتزيد الإيمـان ، ففي كلّ بقعة من أرض المشـاعر ذكـرى كريمة من أنبياء الله ورسله الكـرام عليهم الصـلاة والسـلام ، وبخاصّـة من أبي الأنبيـــاء إبـــراهيم الخليل ، ثمّ خـــــاتمهم ســـــيّدنا محمّد ، ممّا يحمل المـــؤمن على الحـــرص على التأسّـــي ، والطاعة والاتّبـاع ، وهـذه الـذكريات تثبّت قلوب المؤمنين ، وتزيدهم إيمانـاً ويقينـاً ، وتؤجّج الحبّ والشوق العارم ، لزيارة هذه البقاع الطاهرة ، وأداءّ المناسك لله .

9 ـ وفي الحجّ : تمحو بوتقة الإيمـان وحقـائقُ الإسـلام الفـوارق المصـــطنعة الكاذبة بين النــــاس ، ويتجلّى تســــــاوي النـــــاس في المسئوليّة والجزاء : (فلا فضل لعربيٍّ على أعجميّ ، ولا لأبيض على أســــود إلاّ بالتقوى) إنّها حقيقة تتجسّد واقعـاً يحسّـه النـاس ويعيشـونه ، فيـدفعهم إلى مراجعة مفــاهيمهم وســلوكهم ومــواقفهم .. وهو مبدأ التغيير في حياتهم ..

10 ـ وفي الحجّ : يتّصل بِـرّ الحجّ ببِرّ الحياة : فالحجّ أشبه بالمـادّة المكثّفة الـتي يتجمّع في كميّة قليلة منها ما يتفـرّق في كمّ هائل .. وعندما يعيش المؤمن هذه المدّة ولو كانت وجـيزة في جـوّه ورحابه ، ويصـطبغ به بمشـاعره وكيانه كلّه ، تتّصل موجات برّ الحجّ وبركاته مع تجاوب النفس واستجابة مشاعرها ببرّ الإنسان في الحياة الاجتماعيّة ، وحســنِ سـيرته ، ومن ثمّ فلا عجب أن يعود المؤمن خيراً ممّا كان عليه قبل الحجّ ، وهذا معيار الحجِّ المبرور وأهمّ مقاييسه .

11 ـ وفي الحجّ : تصطبغ الحيـاة بصبغة الاستسلام لله تعالى في كلّ

شيء : وتتجلّى في كـلّ شـأن من شـئون الحاجّ وسلوكه ؛ فالمواقيت تعلّمه أنّ لكـلّ شـــيء حـــدّه الشـــرعيّ وميقاته ، وثيـــاب الإحــرام تخرجه عن عاداته في اللبـــاس ، ومحظـورات الإحـرام تضـبط سـلوكه في ليله ونهـاره ، والطــواف حــول الــبيت ، والســـعي بين الصـــفا والمـــروة يعلّمه الوقوف الصـادق ببـاب العبوديّة لله تعـالى راغباً راهباً ، خائفاً راجياً ، وهكـذا في كـلّ شعيرة ونسك ..

12 ـ وفي الحجّ : يتجلّى الأمن الذي يحقّقه الإسلام للناس ، بأروع صوره وحقائقه فحرم الله آمن ، وعبـاد الله في رحابه آمنـــون ، وحتّى الحيـــوان والنبات يشملها أمن المكان والمُحــرمين ، والمــؤمن حياته كلّها مشــتقّة من الأمن .. ممّا يطبع المؤمن على حبّ الأمن والسلام ، والحرص على تحقيقه في حياته وعلاقاته ، ويعلّمنا أنّ الأمن والســلام لا يكونــان ولا يتحقّقان إلاّ في ظلّ دين الله وشرعه .

13 ـ وفي الحجّ : يصبح وفد الله على اختلاف فئـــاتهم ، وتنـــوّع ثقافاتهم ، وتباعد أقطارهم ، رسلاً للـدعوة إلى دين الله تعـالى ، وحمل

رســالة الحــقّ والهــدى إلى العــالمين : { **ومَن أحسنُ قولاً ممّن دَعَا إلى اللـهِ وعَمِـلَ صَـالحاً ، وقــالَ : إنّــني من المسلمين** (33) } فصّلت .

14 ـ وفي الحجّ : لقـاء الوحـدة التعــارف ، والتواصل والتــآلف بين المؤمـــنين على اختلاف ألـــوانهم ، وتباعد أقطارهم تحقيقاً ، لقــول الله تعالى : { .. **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعــارفوا** .. } الحجــرات . والتعـــارف والتآلف مفتـاح كـلّ خـير في حيـاة الأمّة ، وما فقـدت الأمّة عزّتها ، وطمع بها عـدوُّها إلاّ عندما تفرّقت كلمتها ، وتمزّقت وحدتها ، وتــدابر أبناؤها ، ولعبت الأهــواء بعقــول رجالها ، ففقدت التعارف والتـآلف ، وحلّت بينها العــداوة والبغضــاء والتــدابر محــلّ المودّة والوئام ، ففشا الضعف والخور في الأمّة ، وأصــبحت غنيمة بــاردة لأعــدائها ، فلم يجدوا من أكـثر أبنائها مقاومة تـذكر ، بل وجدوا من بعضهم طاعةً عمياء ، وتبعيّة وولاء ، حتّى كانوا عونـاً لأعـداء الأمّة على أخيارها وصالحيها ..!

15 ـ وفي الحجّ : دورة تعليميّة لكلّ مـؤمن ومؤمنة ، تزيـدهم علمـاً

بـدين الله تعـالى وفهمـاً ، وبصـيرة بواقع الأمّة ووعياً ، وفيه يتهيّأ للمـؤمن أن يلتقي رجـــــالاً من أهل العلم والفضل من شتّى أرجاء العالم الإسلاميّ المتباعدة ، فيتعرّف عليهم ويجالسـهم ، ويتعلمّ منهم ، وينتفع بصحبتهم ممّا لا يتهيّأ له في سنين متطاولة ، وفي لقــاء المــؤمن بأهل العلم والفضل ما ينير قلبه ، ويشـدّ أزره ، ويثبّت فؤاده على الحقّ والهدى .

وبعد ؛ فما أحوجَنا أن نتعلّم هـــــــذه الـــدروس التربويّة وغيرها وغيرها .. ونحن نؤدّي مناسك الحجّ والعمـرة .! وما أحوجَنا أن تتمثّل في حياتنا العمليّة وســـــلوكنا ، وعلاقاتنا الاجتماعيّة وصــلاتنا ، فنعــود من أداء هــــذه الفريضة خـــيراً ممّا ذهبنا ، ونقطف الثمــرات المباركة ، الــتي أرادها الله تعالى لنا .

اللهمّ إنّك سـألتنا من أنفســنا ما لا نملكه إلاّ بك ، فأعطنا اللهمّ منها ما يرضيك عنّا .

وصـلّى الله وسـلّم وبـارك على عبـده ونبيّه ســـيّدنا محمّد ، وعلى آله وصـــحبه أجمعين ، والحمد لله ربّ العالمين .

إنّ أداء هذا الركن الإسـلاميّ العظيم ، يجب أن يكــون نقطة تحــوّل في حيــاة المؤمن ، يزداد به خـيراً ، وتقىً وصـلاحاً ، وإنّ المحروم من الخير كلّ الحرمان ، من كـان همّه من الحجّ أن يقـال : حجّ فلان .. أو أن يتبــاهى بالزينة والمظــاهر الفارغة التي لا تغني عن الحقّ شيئاً ..

ولقد ختم الله تعالى الحديث عن الحجّ بقوله سـبحانه : { **فَـإِذَا قَضَـيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللَّـهَ كَـذِكْرِكُمْ آبَـاءَكُمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـرًا ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـدُّنْيَا ، وَمَا لَـهُ فِي الآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ** (200) **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً ، وَفِي الآخِـرَةِ حَسَـنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (201) **أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَـابِ** (202) } البقرة .

فـبيّن سـبحانه حـال الحجّـاج الـذين يَفـوزون بفضل الله ورحمته ، ومغفرته وقبوله :

ـ إنّهم الـذين جمعـوا بين خـيري الـدنيا والآخرة ، تحقيقـاً لمنهج الله ودينه ، الـذي يجعل الإنسان مسـتخلفاً في الأرض بمنهج الله ، ليعمرها وفق هديه ، وحدود تكليفه .

ـ إنّهم الذين تقوم حياتهم على التوازن والاعتـدال في كـلّ شـأن ، فلا يطغى فيها جانب على آخر ، حتّى ولو كان أمر الآخرة : { **وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسَ نصـيبَك من الـدنيا** .. } ، (**إنّ لعينك عليك حقّـاً ، ولزوجك عليك حقّاً ، فأعطِ كلّ ذي حـقٍّ حقّه**) .

ـ إنّهم الذين يعملون في الـدنيا ، ولكنّ قلوبهم متعلّقة بالآخرة ، وما أعـدّ الله فيها لعباده المؤمـنين من المغفـرة والتكـريم ، فلم يغـترّوا بمظـاهر الـدنيا الفارغة ، ولم تشغلهم عن ذكر الله والاستعداد للآخرة .

فعش أخي المـؤمن ما تسـتقبل من حياتك ، في ظلّ ما أدّيت من مناسك الحجّ ومشـاعره ومناسـكه ؛ عش في ظـلّ الطواف حول الكعبة ، وقلبك عاكف حـول عـرش ربّك ، وذكـرى السـعي بين الصـفا والمروة ، فـارّاً إلى الله من ذنوبك ، وفي ضراعة عرفـات ، وأنت تستشـعر ذلّك بين

يــــدي ربّك واضـــــطرارك ، وانكســــارك وافتقـــارك ، وأنت تـــذكر إســـرافك على نفسك ، وتفريطك في جنب الله ، وتـذرف دمــوع النــدم والتوبة ، وعش مع ذكريــات مبيتك في منى ورمي الجمرات ، وتذكّر ما قطعت على نفسك من عهدٍ مع الله مراراً وتكـــراراً ، وأنت تقـــول : " **لبّيك اللهمّ لبّيك** .. " فقد أعلنت إجابة الله وطاعته ، إجابة متكرّرة ، دائمة مستمرّة ، فلا تكذّب نفسك اليـــوم ، فيما عاهـــدت عليه ربّك بالأمس .. تـذكّر الطـواف واسـتلام الحجر باليد أو بالإشــارة ، فــإنّ ذلك عقد مع الله ومبايعة ، وقد روي عن النبيّ أنّه قال : (**الركنُ يمينُ اللهِ عزّ وجــلّ ، يُصـافِحُ بها خلقَه**) [1] ، فمن اسـتلمه بحـقّ كـان له عند الله عهد ، فلا تنكث البيعة ، ولا تنقض العهد : { .. **فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فســـيؤتيه أجــــراً عظيماً** (10) } الفتح .

1(?) ـ الحديث روي من طرق كثيرة مرفوعاً وموقوفاً ، ولم يخل شـيء منها من قـدح ، ولكن قـال العجلـونيّ في كشف الخفـاء 1/346/ : له شـواهد ، فالحـديث حسن لغـيره ، وإن كان ضعيفاً بحسب أصله .

وحُضّ النــاس على أداء فريضة الحجّ ، وشوّقهم إليه ، ورغّبهم بثواب الله تعـالى ، وعظيم فضـله ، وهـوّن عليهم ما يتوهّمونه من المصـاعب ، ولاسـيّما الشـباب ، فـإنّ الحجّ صـيانة لهم ، وعصــمة لــدينهم ، تنل أجر من يحجّ بــدعوتك ، أو ينتفع بتوجيهك ، كما قـال النـبيّ : (**مَن دَلّ على خَـيرٍ فله مِثلُ أجرِ فاعِلِه**) [1] .

أخي المـــؤمن الحــــاجّ .! هـــذا هو المقيــاس الصـحيح للحجّ المــبرور ، وتلك مظـــاهره ، فمن أراد أن يطمئنّ لقبـــول حجّه ، فليكن أثر الحجّ في قلبه أن يزيد اهتمامه بآخرته ، وأن يزداد بحجّه استقامة وتقــوى ، فــإنّ علامة الحجّ المــبرور : أن يرجع الحـاجّ خـيراً ممّا كـان عليه ، فـذلك من علامـــات القبــــول والرضا : { **إنّما يتقبّل اللهُ من المتّقين** } المائدة .

اللهمّ اجعله حجّاً مـبروراً ، وسعياً مشـكوراً ، وذنباً مغفوراً ، وعملاً مقبولاً ، وتجـارة لن تبـور ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغـازي 6/41/ .

[illegible]

* أثر السيرة النبويّة
في تربية الفرد وبناء الأمّة (1)

قال والد مربّ لولده : ها أنت يا بنيّ كالزهرة المتفتّحة في روضة الربيع ، تشدو البلابل على أغصانها ، وتقبل عليها الفراشات تتراقص بجوارها ، وتأتيها النحلة ترشف من رحيقها ، ويتمتّع الإنسان ببديع ألوانها ، وعبق طيبها .. تقبل عليك الحياة كما تقبل العروس بأبهى حلّتها وأكرم بهجتها إلى عروسها ، فربّما التبست عليك المسالك ، وحار بصرك بين الموارد ، فإذا أردت الرشد في العقل ، والسداد في العمل ، وتمييز الحقّ من الباطل ، والصواب من الخطأ ، والتوفيق في جميع ما تُقدم عليه أو تحجم ، فاجعل من نبيّك المصطفى ، ورسولك المجتبى أسوة لك في كلّ شأن .. فالتمس هديه ، وتعرّف على سنّته ، واحرص على أن تترسّم خطاه ، تكن مهديّاً راشداً ، مؤيّداً مسدّداً .. وتنل من رضوانك ربّك في الآخرة ما يجعلك في فراديس الجنان في صحبة المصطفى ، فالنبيّ هو الأسوة العظمى للمؤمنين في كلّ شأن من شئون الحياة .. فإذا كنت طفلاً فلك في

رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فانظر إلى طفولة النبيّ ﷺ كيف كانت سامية عن الدنايا ، تبدو على صاحبها علائم النجابة وسُموّ الهمّة .

وإذا كنت يتيماً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كانت حياة هذا اليتيم مدعاة لعطف كلّ منْ عرفه ، فأحبّه وحرص على أن يتقدّم له بكلّ خير ..

وإذا كنت شابّاً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كانت حياة هذا الشابّ بعيدة عن أيّ صبوة من صبوات الشباب ونزواتهم ، وكيف كان ﷺ نموذجاً للشابّ العفّ الكريم ، ذي المروءة والشهامة ، التي جَعَلَت حكماء الرجال يحتكمون إليه ، ويجلّونه ..

وإذا كنت زوجاً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كان ﷺ زوجاً ودوداً وفيّاً ، يتواضع لنسائه ، ويرفق بأزواجه ، ويعدل بينهنّ ، ويداعبهنّ ويُمازحهنّ ، ويعينهنّ فيما يقمن به من خدمة ..

وإذا كنت أباً مُربّياً فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف كانت تربيته ﷺ هي التربية المثلى لأولاده ، ولأولاد أولاده ، ولأصحابه ، ولكلّ من اتّصل به بأيّ سبب ،

وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، وكان له من أساليب التربية الفاعلة المؤثّرة ما لم يعرفه أحد في مثل عصره .!

وإذا كنت ملكاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، الذي لم يكن رسولاً ملكاً ، وإنما كانَ رسولاً عبداً باخْتياره ورغبته ، ملك القلوب ، ودانت لعظمة شخصيّته رقاب العظماء ، ووقف ببابه الأمراء والكبراء ، ومع ذلك فلم يُر إلاّ خاشع القلب متواضعاً قد وهب نفسه ووقته لكلّ فرد من أمّته ..

وإذا كنت مديراً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان يدير شئون الناس بالرفق والرحمة ، يرحم الغافل ، ويرفق بالجاهل ، ويعطِ كلّ ذي حقّ حقّه ، ولا يرضى أن يظلم تحت رعايته أحد ..

وإذا كنت قائداً منتصراً وفاتحاً غالباً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف لم يحمله انتصاره على أعدائه في مواطن كثيرة على أن ينتقم من أعدائه ، وينكّل بخصومه ، وإنّما كانت رحمته هي الغالبة ، وعفوه عند المقدرة هو الخليقة التي حكمت علاقته بخصومه وأعدائه ، حتّى استلّ من قلوبهم سخائم الحسد والحقد ،

وأقبلوا إلى دينه ودعوته مسلمين مستجيبين ..

وإذا كنت قائداً مهزوماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف لم تلن له قناة ، ولم تهن قوّته ، أو تضعف عزيمته ، وإنّما كان رابط الجأش ، عظيم الثقة بالله تعالى ، والتوكّل عليه ، كثير الضراعة ، والتذلّل بين يدي ربّه ، كما كان شأنه كذلك في انتصاره وتمكّنه ..

وإذا كنت تاجراً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان تاجراً بمال خديجة رضي الله عنها أميناً صادقاً ، وكيف مارس التجارة بعد نبوّته في مواقف مختلفة ، فكان كريماً سمحاً ، يجعل التجارة باباً من أبواب نصرة دينه ، ونشر دعوته ..

وإذا كنت غنيّاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، يوم كانت تأتيه الأموال الكثيرة ، التي كان يسعه أن يختصّ بها أزواجه وأهله ، فيقسمها بين أصحابه ، ويؤثرهم بها على نفسه وأهله .. ويوم أعطى المؤلّفة قلوبهم من الأموال ما لا تطيب به نفوس الملوك ، ولا تقدر عليه .. ويوم كان حاله في فقره ، لا يختلف عن

حاله في غناه ، لأنّه علّمنا أنّ حقيقة الغنى هو غنى النفس ، وأنّ عفّة النفس أكرم صفات المؤمن وأعزّها ..

وإذا كنت عاملاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذ كان يحبّ العمل ، ويحثّ عليه ، ويدعو أمّته إلى إتقانه ، ويعمل مع أصحابه ولا يتميّز عنهم ..

وإذا كنت فقيراً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، يوم كان يجوع فيعصب على بطنه الحجر والحجرين من شدّة الجوع ، ويطوي على الجوع ثلاثة أيّام صابراً محتسباً ، لا يذوق فيها شيئاً ، ويحمل أزواجه الكريمات على مثل زهده في الدنيا والتقلّل منها ..

وإذا كنت طالباً متعلّماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان عندما يتعلّم من جبريل عليه السلام ، ويتلقّى عنه ، يقبل عليه بكلّيّته ، وينصت إليه بمسامع قلبه ، وكيف كان ينصت لمشورة أصحابه ، ويتفهّم آراءهم ، وربّما أخذ ببعضها دون أن يجد في نفسه غضاضة أو حرجاً ..

وإذا كنت معلّماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فانظر إلى رفق النبيّ في

تعليمه ، وصبره على جهل الجاهل ، وجفوة الأعراب .. وانظر إلى ترغيبه في العلم ، وحثّه عليه ، وتشجيعه على الاستزادة منه .. وانظر إلى أساليبه في التعليم ، كيف فاقت أساليب عصره ، بل أتى بأساليب في التربية والتعليم لم يعرفها الناس إلاّ في العصر الحديث ..

وإذا كنت خطيباً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فانظر كيف كان النبيّ يؤثر بليغ القول وجوامعه ، ويوجز في خطبته ، ويجمع فيها حقائق الدين ومبادئه ، ولا يطيل على الناس ولا يملّهم ، ولا يذكر أحداً ولا يعَيّنه ..

وإذا كنت مذكّراً واعظاً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان الناصح الأمين ، والمرشد المبين ، يتخوّل أصحابه بالموعظة بين الحين والآخر كراهة السآمة عليهم ، ولا يكثر عليهم ، يجلّي لهم الحقائق ، ويضرب لهم الأمثال ، وكانت مواعظه تــؤثّر في القلوب ، وتذرف منها العيون ، فيستجيب لها السعداء ، وتزيدهم هدىً إلى هداهم .

وإذا كنت قاضياً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان يحرص على الصلح بين المتخاصمين ، ويطلب البيّنة ،

ويتحرّى الحقّ ، ويحكم بالعدل ، ويحذّر من شهادة الزور وقول الزور .

وإذا كنت آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فلتكن رحيماً رفيقاً ، واعياً حكيماً ، بعيداً عن الغلظة والتعنيف ، والاتّهام وسوء الظنّ ..

وإذا كنت داعياً إلى الله مرشداً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذْ كان مبشّراً للمؤمنين ، ومنذراً للكافرين ، حريصاً على هداية الناس أجمعين ، صابراً على أذى الخلق ابتغاء وجه الخالق ، يتجاوز عن جفوة ذي الغلظة ، ويدعو له بالهداية ..

وإذا كنت عابداً لله متبتّلاً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذْ كان يقوم من الليل حتّى تورّمت قدماه ، وعندما قيل له : أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً .؟!) ، وكان يصوم حتّى يقول أهله : لا يفطر ، ويفطر حتّى يقولوا : لا يصوم ، وكان في كلّ باب من أبواب العبادة لا يدرك شأوه أحد ، وكان ينهى عن التنطّع في الدين والغلوّ ، ويدعو أمّـته إلى التوسّط والاعتدال ، وألاّ يحمّلوا أنفسهم من العمل إلاّ ما يطيقون ..

وإذا كنت مدبّراً لشئون الدنيا فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذ كان يحبّ إتقان العمل وإحسانه ، ويعدّ ذلك عبادة لله تعالى وقربة ، وكان يدعو بسنّته وسيرته إلى الأخذ بالأسباب وإحكامها ، والاجتهاد في عمارة الأرض وابتغاء طيّب الرزق ، ويرشد أمّته إلى ما فيه صلاح دينها ودنياها ..

وإذا كنت مقيماً لعلاقات اجتماعيّة بين الناس ، ومجالساً أو مصاحباً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذ كان يكرم جليسه ويؤثره ، ويقبل عليه بوجهه وحديثه ، حتّى يظنّ أنّه آثر الناس عنده ، ويؤلّف أصحابه ولا ينفرّهم ، ويعينهم فيما هم فيه ، ولا يتميّز على أحد منهم ..

وأيّاً من كنت ، وفي أيّ موقع من مواقع الحياة حللت ، وكيف أصبحت أو أمسيت ، وعلى أيّ حال بتّ أو أضحيت ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، وقدوة مثلى ، تضيء لك بنورها ظلمات الحياة ، وتخرجك من متاهات الحيرة والضياع ، ولن تستطيع أن تجد في غير حياة المصطفى ما يغنيك أو يجديك .. وانظر رعاك الله كم أصلحت حياته المباركة ، وسيرته الشريفة العطرة ، وهديه الممدود بوحي السماء ، ونور الله

المبين : من حياة أمم وشعوب ، وأخرج الله بها أناساً من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة والعمى ، إلى الخير والهدى ، منذ أوّل البعثة النبويّة المباركة ، إلى يوم الناس هذا ، ومن مشرق الأرض إلى مغربها .!؟ وإلى ما شاء الله تعالى وأراد ..

وقلّب النظر والمقارنة تارة أخرى فهل ترى إنساناً آخر غير المصطفى كان له مثل هذا التأثير ، أو عشره ، أو عشر عشره .. وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله قيلاً : **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** (2) .. **ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (4) الجمعة .

* أثر السيرة النبويّة في تربية الفرد وبناء الأمّة (2)

إنّ عظمة العظمـــاء في جميع منابتها تقـــوم على أسس هي أســـباب لها ، كما ينبت جذع الشجرة من الجـذور ، وبحسب ما يكــون في تلك الأسس والأســباب من كـثرة وقـوّة ، تكـون قيمة العظمة وشـأنها وخلودها ، كالجَذع تكـون قوّته وضـخامته ، وثباته في وجه الرياح والأعاصير ورسـوخه بقـدر ما لجـذوره من كـثرةٍ تُغذّيـه ، وقـوّةٍ تحميه . هذا وأهمّ أسباب العظمة الحقيقيّة أربع :

1 ـ الصـــفات النفســيّة والأخلاق الشخصية .

2 ـ عظمة المبادئ والأعمال التي أتى بها .

3 ـ قوّته وكفايتــه ونجاحه في تنفيذ المبادئ التي أتى بها .

4 ـ مدى نجاحه في تكوين جيل قياديّ صـــــالح ، مؤهّل لحمل المســــئوليّة ، والمحافظة على المبادئ ، ومتابعة تنفيذها .

وقد جمع الله هــذه الأســباب الأربعة للعظمة الحقيقيّة في شخص النـبيّ على أكمل صــورة وأوفاها ، وأجلّها وأعلاها ، إذ تحقّقت فيها ثلاثة جــــوانب : شـــــمولها واســتيفائها ، وكمالها وسـموّها ، ووضـعها في مواضعها ، ومن ثمّ فقد وصـفت أخلاق النــبيّ بقول الله تعـالى : **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** (4) القلم .

ولا توصف الأخلاق بالعظمة إذا اختــلّ ركن من هـذه الأركـان الثلاثة ، فالشـجاعة صـفة كريمة مرغوبة ، ولكنّها عنـدما توضع في غـير موضـعها ، أو تكـون في الإنسـان في أمر دون آخر ، لا توصف بكمال ولا عظمة ..

والرحمة صفة كريمة مرغوبة ، ولكنّها عندما يعامل بها المجـرم الآثم ، أو البـاغي الظالم لا تقـلّ شـناعة عن البغي والظلم ، بل قد تكون سبباً لنشـر الشـرّ في الأرض .. وقس على ذلك بقيّة الأخلاق والصــفات ..

ولقد شبّ رسول الله محفوظــاً من اللــه تعـالى ، بعيـداً عن أدنـاس الجاهليّة وعاداتها ، فكــان أفضل قومه مـــروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأشدّهم حياءً ، وأصدقهم

حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأسماهم في اتّزان شخصيّته ، ونبل صفاته ، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة ، حتّى أسموه في قومه : " الأمين " ، قد عصمه الله تعالى من أن يتورّط فيما لا يليق بشأنه ، من عادات الجاهليّة ، وما لا يرون به بأساً ، ولا يرفعون له رأساً ، وكان يصل الرحم ، ويحمل ما يثقل كواهل الناس ، مكرماً للضيف ، عوناً للضعيف ، يأكل من كدّه وعمله ، ويعفّ عمّا في أيدي الناس ، ويقنع بقوته . * وكان من أجمع ما وصف به من الشمائل :

ـ أنّه كان دائم البشر سهل الخلق ، ليّن الجانب ، ليس بفظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب ، ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مدّاح ، ولا يجزي بالسّيّئة السّيّئة ، ولكن يعفو ويصفح ، يتغافل عمّا لا يشتهي ، ولا يُقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لا يذمّ أحداً ، ولا يعيّره ، ولا يطلب عورته .

ـ وكان لا يتكلّم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلّموا ، لا

يتنــازعون عنــده الحــديث من تكلّم عنــده أنصــتوا له حــتى يفــرغ ، حــديثهم حــديث أوّلهم ، يضـــــحك مما يضـــــحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصـبر للغـريب على الجفـوة في المنطق ، ويقـول : (**إذا رأيتم صاحب الحاجة فأرفـدوه**) ، ولا يطلب الثنـــاء إلاّ من مكـــافئ . هـــذا وقد تجلّى أثر الســيرة النبويّة في تربية الفــرد وبناء الأمّة في جوانب كثيرة أهمّها :

1 ـ قوّة الإيمان واليقين :

2 ـ الحبّ والتعظيم :

3 ـ الحــرص على التأسّــي والطاعة والاتّباع :

ولابدّ أنْ نــرى أثر هــذه النقــاط من خلال علاقة الصـحابة بـالنبيّ ، ومواقف السيرة العطرة ، ونقــدّم نمــاذج عنْ ذلك فيما يلي :

1 ـ قــوّة الإيمــان واليقين ، والثبــات على الحــقّ مهما اشــتدّ الابتلاء : ومواقف الســـيرة النبويّة طافحة بنمـــاذج ذلك من حياة النبيّ وحياة أصحابه الكرام ، فمن ذلك :

ـ موقف النـــبيّ عنـــدما هـــدّد المشـركون عمّه أبا طـالب : إن لم يكـفّ

النبيّ عن دعوتهم إلى دينه ، وتسفيه دينهم ، وعيب آلهتهم ، أن يعلنوا له العداوة والحرب ، فقال : (**والله ! يا عم لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمر في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره اللهُ ، أوْ أهلك دونه**) .

ـ موقفُ الصحابة في غزوة بدر :

وفي غزوة بدر عندما فوجئ الصحابة بالمعركة مع المشركين ، وقال لَهم النبيّ : (أشيروا عليّ أيّها الناس !) ، أجمعت كلمةُ المهاجرين والأنصار على المضيّ في طاعة الله ورسوله دون تردّد أو تلكّؤ .. فجاءتهم بشائر النصر ، بأمداد من الملائكة يقودهم جبريل الأمين عليه السلام ..

ـ موقف زيد بن الدثنّة عندما قدّم للقتل :

وعندما قدّم المشركون زيداً للقتل في مكّة ، تقدّم منه أبو سفيان ، وكانَ مشركاً ، وقَال له : أنشدُك بالله يا زيد ! أتحبّ أنّ محمّداً مكانك نضرب عنقه ، وأنّك آمن في أهْلك .؟ فقالَ له : " والله ما أحبّ أنّ محمّداً تصيبه شوكة حيث هو ، وأنّي آمن في أهْلي " . فقالَ أبو سفيان :

" والله ما رأيت أحـــداً يحبّ أحـــداً كحبّ أصحاب محمّدٍ محمّداً " .

ـ موقف مــاعِز والغامديّة : جــاء في الحـــديث الصـــحيح أن مـــاعز بن مالك الأسـلمي أتى رسـول الله فقـال : " يا رســـول الله ، إنّي ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهّرني " فـردّه ، فلمّا كـان من الغد أتاه فقـال : يارسـول الله إنّي قد زنيت " فردّه الثانية ، فأرسل رسـول الله إلى قومه فقال : أتعلمـون بعقله بأسـاً ، تنكـرون منه شـيئاً ؟ فقـالوا : ما نعلمه إلا وفيَّ العقل من صالحينا فيما نـرى ، فأتـاه الثالثة فأرسل إليهم أيضـــاً فســـأل عنه ، فـــأخبروه أنه لا بـــأس به ولا بعقله ، فلما كـــانت الرابعة حفر له حفـــرة ثم أمر به فرجم .

قـال : فجـاءت الغامدية فقـالت : " يا رسـول الله إني قد زنيت فطهّـرني " وأنّه ردّها ، فلمّا كان من الغد قالت : يا رسـول الله لم تردّني ؟ لعلّك أن تردّني كما رددت مـاعزاً ، فوالله إنّي لحبلى . قـال : إمّا لا ، فاذهبي حتّى تلدي . قال : فلمّا ولـدت أتته بالصبيّ في خرقة فقالت : هـذا قد ولدته . قـــال : فـــاذهبي فأرضــعيه حتّى تطعميه ،

فلمّا فطمته أتت بالصـــــبيّ ، في يـــــده كسرهة خبز ، فقالت : هـذا يا نـبيّ الله قد فطمته ، وقد أكل الطعـام ، فـدفع الصـبيّ إلى رجل من المســـــلمين . ثمّ أمر فحفر لها إلى صــدرها ، وأمر النــاس فرجموها . فاســـتقبلها خالد بن الوليد بحجر فـــرمى رأسها ، فنضح الدم على وجه خالد فسـبّها ، فسـمع نـبيّ الله سـبّه إياها فقـال : مهلاً ياخالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صـــاحب مكس لغفر له " ، ثم أمر بها فصلَّى عليها ودفنت .

2 ـ الحبّ والتعظيم :

* ـ بعد غزوة أحد عاد المسـلمون إلى المدينة فمرّوا بامرأة من بـني دينـار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ، فلمّا نُعوا لها ، قالت : فما فعل رسـول الله ؟ قـــالوا : خيراً يا أمّ فلان هو بحمد الله كما تحبّين ، قالت : أرونيــه حتّى أنظر إليه ، فأشـير لها إليه ، حتّى إذا رأته قـالت : كلّ مصيبة بعدك جلل .

* ـ وحين رجع عثمـان من مكّـة في صـــلح الحديبية قـــال لـــه المســـلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئسما ظننتم بي ، والـذي نفسي

بيـــده لو مكثت بها سنة ورســـول الله مقيم بالحديبية ما طفت بها حتّى يطـــوف بها رسول الله ، ولقد دعتني قـريش إلى الطواف بالبيت فأبيت " .

* ـ ووصف عـروة بن مسـعود الثقفيّ أصـــــحاب النبيّ بقوله : أي قوم ! والله لقد وفــدت على الملــوك : على كســرى وقيصر والنجاشــيّ ، والله ما رأيت ملكــاً يعظّمه أصــحابه ما يعظّم أصــحاب محمّد محمّداً ، والله ما تنخّم نخامة إلاّ وقعت في كـــفّ رجل منهم ، فـــدلك بها جلـــده ووجهه ، وإذا أمـــرهم ابتدروا أمـــره ، وإذا توضّــأ كـادوا يقتتلـون على وضـوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنـده ، وما يحـدّون النظر إليه تعظيماً له .

* ـ وقدم أبو سفيان على رسـول الله المدينة ، ودخل على ابنته أمّ حبيبة زوج النــبيّ ، فلمّا ذهب ليجلس على فــراش رسـول الله طوته عنه ، فقـال : يا بنيّة ! ما أدري أرغبت بي عن هــذا الفـــراش أم رغبت به عنّي .؟ قــالت : بل هــو فــراش رســـول الله ، وأنت امـــرؤ نجس ، ولم أحبّ أن تجلس على فـراش رسـول الله ، قال : والله لقد أصابك بعدي شرّ .

* ـ وبعد فتح مكّة همّ فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله وهو يطوف بالبيت ، فلمّا دنا منه قال له : أي فضالة !؟ قال : نعم يا رسول الله ! فقال : ماذا كنت تحدّث به نفسك .؟! قال : لا شيء ! كنت أذكر الله ، فضحك النبيّ ، ثمّ قال : أستغفر الله ، ثمّ وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتّى ما خلق الله شيئاً أحبّ إليّ منه .

* ـ وعندما وجد الأنصار في أنفسهم بعد قسمة غنائم حنين ، جمعهم النبيّ ، ثمّ قال لهم : (أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم .؟!)

(ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم .؟! فوا الذي نفس محمّد بيده لما تنقلبون به خيرٌ ممّا ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلك الأنصار شعباً ووادياً لسلكت

شـــعب الأنصـــار وواديها .. الأنصار شــعار ، والناس دثــار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار) .

فبكى القـــوم حتّى أخضـــلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظّـاً .

3 ـ الحـــرص على التأسّـــي والاتّباع :

وكان من شدة طاعتهم له أنه نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الـذين تخلفـوا عن غـزوة تبـوك ، فما كـان من النـاس إلا أن أطــاعوه وأصـبحت الدينة لهـؤلاء كأنها مدينة الأمـــوات ليس بها داع ولا مجيب . يقول كعب : ونهى رسول الله عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، قــال : فاجتنبنا الناس ، أو قال : تغيروا لنا ، حـتى تنكـــرت لي نفس الأرض فما هي الأرض التي أعرف ، إلى أن قال : حـتى إذا طـال علي من جفـوة المسـلمين مشـيت حـتى نسورت جـدار حائط أبي قتـادة ــ وهو ابن عمي وأحب النــاس إلي ـــ فسـلمت عليه فوالله ما رد علي الســـلام ، فقلت له : يا أبا قتــادة أنشــدك بالله هل تعلمــني أحب

الله ورسوله ؟ فسـكت ، فعـدت فناشـدته فســكت ، فعــدت فناشــدته فقــال : الله ورســـوله أعلم ، ففاضت عيـــني ، ووليت حتى تسورت الجدار .

وكان من طاعته أيضـاً وهو في موضع عتاب وجفوة أن رسولَ رسولِ الله يأتيه ويقــول له : إن رســول الله يــأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقال أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقـال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها ، فقـال لامرأته : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله من هذا الأمر .

وكان من حبه للرسول وإيثـاره على كل أحد في الدنيا ، أن ملك غسان يخطب وده ، ويســــــتلحقة بنفسه ، وتلك محنة عظيمة في حـال الجفـوة والعتـاب ولكنه يـــرفض ذلك ، قـــال : بينما أنا أمشي فيل سوق المدينة إذ نبطيٌّ من نبط أهل الشام ممن قـدم بالطعـام يبيعه بالمدينة يقـول : من يــــدلني على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إلي حـتى جـائني فـدفع إلي كتابــاً من ملك غســان ــ زكنت كاتبــاً فقرأته فـــإذا فيه : أما بعد : إنا قد بلغنا أن صـاحبك قد جفـاك ، ولم يجعلك الله بــدار هــوان ولا مضــيعة ، فـــالحق بنا نواسك .

فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

ومن غـرائب الطاعة وسـرعة الانقيـاد ما حــدث عند نــزول النهي عن الخمر في مجلس شــرب ، فعن أبي بريــدة عن أبيه قـــال : بينما نحن قعــود على شـــراب لنا ونحن نشــرب الخمر حلة ، إذ قمت حــتى آتي رسـول الله فأسـلم عليه ، وقد نـزل تحــريم الخمر : { ياأيها الــذين آمنــوا .... لعلكم تفلحــون (90)ـ } إلى قوله { فهل أنتم منتهــون (91) } المائــدة . قـــال : وبعض القوم شربته في يده شـرب بعضـاً وبقي بعض في الإنـاء ، فقـال بالإنـاء تحت شـفته العليا كما يفعل الحجـام ، ثم صـبوا في بـــاطيتهم فقـــالوا : انتهينا ربنا ! انتهينا ربنا .

وبعد ؛ فما أعظم الحقائق التي يجـدها المــربّي في ريــاض السيرة النبويّة ، يجــد فيهَــا حقـائق الإسـلام تتجَسّــد في مواقف النبيّ وشمائله وهديه ، وعلاقاته بأصحابه في جميع الأحــــوال ، وعلاقاته بأعدائه في الســــلم والحرب ، وهي خير مادّة لتنشئة الطفل على حُبّ اللــــــه ورســــــوله ، والاعتزاز بالإسلام ومبادئه وأحكامه .

[illegible]

في الإنسان فطرة لا تقبل التحـــوير والتغيـــير ، وهي التطلّـــع إلى مَن يعجب بسلوكه ، ويتأسّى به ، يمنح ذلك أوّل مــا يمنحه أمّــه وأبــاه ، ثمّ كلّما كــبر ونما ، وتعــــرّف على النـــــاس من حولِه بحثَ بشـكل فطـريّ ، وبغير شـعور منـه عمّن يعجب به أكـــثر ، ويجـــد فيـــه أسوة له وقــــدوة ، تشـــبع نهمته ، وتبني كيانه ، وتحقّق له تطلّعاته ..

ومِن رحمة اللهِ بالإنســان أن حقّــق له هـــــذه النهمة الفطريّة والحاجـــــة الضروريّة بما جعل له في سـيرة الأنبيـاء والرسل وحياتهم عليهم الصـلاة والسـلام من أسوة حسنة ، وبخاصّة نبيّه محمّـداً ، سـيّد الخلق ، وخاتم الأنبيـاء والرسل ، إذ جعله معصوماً عن الخطأِ ، منزّهـاً عن اتّباع الهوى : **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهـوى** (3) **إِنْ هُـوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُـوحَى** (4) النجم .

ويقول الله تعالى : **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِـرَ وَذَكَـرَ اللهَ كَثِيراً (21)** الأحزاب .

فهل عــرفت الإنســانيّة فــتىً أطهر سيرة ، وأزكى سريرة ، وأشرف نســباً ، وأكــرم حسـباً ، وأعظم خلقـاً من محمّد بن عبد الله .؟

لقد لقّبته قـــــريش الأمينَ ، وأجمع على ذلك عقلاؤها ، ولو عَـــــــرَفَت أحد زعمائها بذلك لما ضنّت عليه بتلك الصفة ، واختصّت بها محمّداً من دونه .

ووصـــــفته زوجه العاقلة الحكيمة ، خديجة رضي الله عنها ، وقد عاشت معه خمس عشـرة سـنة قبل النبـوّة ، خـبرت خلالها شخصيّته وأخلاقه ، فقـالت له أول عهـــده برســـالة الســـماء ، وقد داخله الخــوف مما جــرى معه : " **كلا ! والله لا يخزيك الله أبـــــداً ؛ إنك لتصل الــرحم ، وتحمل الكــلّ ، وتقــري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحقّ** " .

وكــــان يعفو عمّن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، ولم يكن يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمــات الله ، فـــإذا انتهكت حرمات الله تعالى لم يقم لغضبه شيء .

ولقد أوذي في الله تعـــالى أشـــدّ الإيذاء ، فلم يـدع على قومه ، ولم يتطلّع إلى الانتقــام منهم ، وإنما كــان يقــول : (**اللهمّ اهــــدِ قـــــومي فــــإنهم لا يعلمون**) .

وعنــــدما ناله منهم أشــــدّ الأذى عُـرض عليه عـذابهم وهلاكهم ، فقـال : (**لا ، بل أرجو أن يخــــــرج الله من أصـلابهم من يعبد الله ، لا يشـرك به شيئاً**) .

إنّه أعظم إنســـان لبس جلبــــاب العبوديّة لله تعـالى ، ونعم بـأكرم مراتبها ، قد شـغف قلبه الشـريف بعبـادة ربّه ، والاسـتغراق في مناجاته وذكـره ، فكـان يجتهد في التعبّد عبادة خشوع وخضـوع ، وخشية ودموع ، وإخلاص في التوجّه إلى الله تعـالى وابتغـاء مرضـاته ، قـام من الليل حتّى تفطّرت قـدماه ، وعنـدما قيل له : أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقـدّم من ذنبك وما تـأخّر .؟! قـال : أفلا أكون عبداً شـكوراً .. ولم يمنعه اجتهـاده في العبادة من أن يكـون مبـادراً إلى كل عمل في حينه ، بدون تـأخير يفقد العمل قيمته ، أو تعجّل بالعمل قبل وقته ..

لقد جمع الرسول جمعاً فريـداً في التاريخ بين أعلى درجات النقـاء الـروحيّ بالاجتهـاد في عبـادة الله تعـالى ، وأعْلى درجات العمل والنشاط ، دعـوة إلى الله تعالى ، وتربية لأمّته ، وجهـاداً في سـبيل الله ، وبنـــاءً لدولة الإســـلام ، وتســـييراً لشئونها وتنظيماً ..

ومن أبرز خصاله الشخصـيّة النـادرة بين العظمـــــاء ذوي الســــلطان : مزيد التواضع والحيـــــاء والإيثار ، وكـــــان من تواضـــعه بعـــده عن كـــلّ صـــور الأبهّة ومظــاهر التعــاظم ، الــتي يتميّز بها في العــادة الحكّـام والرؤسـاء ، ويحرصـون عليها أشـدّ الحـرص ؛ فكـان يتسـاوى مع أتباعــه في المأكل والملبس ، والمظهــر والمجلس ، وما يقـــوم به من الأعمــــال البدنيّة ، ويكره أن يتميّز عنهم في شـيء .

وكان من إيثاره وزهده أنّه قد يأتيه ما يملأ الـــوادي من الأمـــوال والغنـــائم والهدايا ، فيوزّعه كلّه من فـوره ، ويـبيت ليس عنده منه شيء ..

ومن خصــاله الشــريفة النــادرة : إذعانه للحـــقّ على نفســـه ، حتّى مع من يخالفه في الـــدين ، ويعلن له العـــداوة

والخصـومة ، ويـدخل في هـذه الخصـلة الكريمة : صبره الجميل ، واحتماله للأذى ، وسـعة صـدره على إسـاءة الجهّـال ، وجفوة الأعراب .

ـ ومن أهمّ ما يميّز سـيرته المثاليّة بين ســائر العظمــاء : التزامه الشــديد بتطبيق الأخلاق التي يدعو إليها ، التزامـاً لا خـــروج عنه ولا اســـتثناء ، حتّى مع أعدائه ، فلا تنـــــاقض ولا اختلاف بين الـدعوة والسـلوك ، فلم ينقض عهـداً مع عــدوّ ، ولم يحــاول غــدراً بخصم ، مهما كان يائساً منه ، ويخشى غدره .. وكان قــدوة للنــاس في كلّ ما يــأمرهم به ، وأبعد الناس في هديه وسيرته عن كلّ ما نهى النـاس عنه .. ولن يسـتطيع مقـال عاجل أن يلمّ بشـيء من جوانب العظمة في شخصيّة رسول الله وأخلاقه ..

وبعد ؛ فـــإنّ حاجة الناشئ إلى مثل أعلى يتعلّق به قلْبُه ، ويطمح إليه نَظَـرُه ، حاجة أكيـدة ماسّـة .. وإنّ ما نشـكوه اليوم منْ ضياع شـباب الأمّة وراء التعلّق بـالنكِرات ، والافتتـان بكـلّ أفّـاك أثيم .. سَببُه الأوّلُ والأكبر تقصير الآباء والمربّين في تقديم القدوة الحسـنة لأبنَـائهم ، من أنفســهم وســلوكهم ، والمثل الأعلى من شخصيّة النبيّ وسـيرته العطـرة وهديه ..

وإنّنا بحاجة إلى إصلاح مناهج التعليم ، التي تقدّم السيرةَ النبويّةَ تاريخـاً لدولة ، وعلاقـات صـراع وحـروب ، أكـثر ممّا تقـدّمها مثلاً أعلى للإنســان ، ولا تــبرز جانب الأخلاق والسلوك ، بِما يتناسبُ معَ أهمّيّته ، ويلائم نمـــــوّ الطفل ونشــــأته واهتمَاماته ، فلا تتّصل الســـيرة بهـــذه الطريقة بعاطفة الناشئ ووجدانه ، وقلبه وروحه ، وإنّما تأخذ حظّها مـــــــادّة من الموادّ العلميّة الجافّة ، الـتي قصـارى ما يفكّر فيـه الطـالب تجاهها أن ينـال درجة النجــــاح ، ثمّ لا يهمّه بعد ذلك أن يهملها ويتناساهَا .. وإنّ الصورة الوضيئة ، الــتي أراد الله تعالى لهـذه الأمّة أن تتعامل بها مع نبيّها هي صـورة الأسـوة الحسـنة ، والقدوة المثلى ، كما قال تعالى : **لَقَدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللـهِ أُسْـوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِـرَ ، وَذَكَـرَ اللـهَ كَثِـيراً** (21)ـ الأحزاب .

فما أحسن أن يربط الآباء والمربّون الأبناء والناشئين بشخصيّة النبيّ وسيرته العطرة ، حبّاً واتّباعاً ، وتدارساً واهتماماً ، لتمتلأ قلوبهم تعظيماً لشريعته ، وحبّاً لسنّته ، وتبتعد بقدر ذلك عن الافتتان بما سواها من المناهج

والاتّجاهات .. وإنّا لنرجو ذلك ونتمنّاه ، والله وليّ التوفيق والسداد ..

* وإذا مَرضتّ فهو يَشْفِين ..

الابتلاء بالمرض باب من أبواب العبادة لله تعــالى ، يغفل عنه كثــيرٌ منَ النــاس ، وبخاصّةٍ في تَربية أولادهم .

وإنّ من أعظمِ دلائل ربوبيّة اللــه على عبـــاده مَـــا يقـــدّر عليهم من الأمراض والابتلاءات يقول الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَـوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ .. (186) ﴾ آل عمران . ويقول تعالى : ﴿ .. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّـرِّ وَالخَيْـرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) ﴾ الانبياء .

وما يقدّر الله على عباده من أمراض وابتلاءات إنّما هو لحكمٍ جليلة كثـيرة ، قـد يظهر بعضُها للعبـد ، وقد يخفى عليه كثـير منها ، ويكفي المـؤمن أن يعلمَ ويــوقن أن اللهَ تعـالى حكيم عليم ، وأنّ كـلّ ما يقـدّر له فهو له خير ، لأنّه إذا أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصـابته ضـرّاء صـبر فكان خيراً له .

ومن حكمـــة الابتلاء بـــالأمراض تحقّقُ العبد بصدقِ العبوديّة لله تعالى ، فالمريض المتـألّمُ ، الخـائفُ من عاقبـة مرَضه تـراه يدْعُو الله بتـــذلّل وانكســـار ، ليسَ كحال الإنسان وهو في صحّته وعافِيتِه .

كما أنّ من حكمـــة الله تَعـــالى في الابتلاء بـالأمراض تكفـير السـيّئات ، ورفع الدرجات ، فـالأمْراض تكفّر السـيّئات ما لا تكفّره الطاعات والأعمـال الصـالحة ، لكن شـريطة أن يحتسب العبد ذلك عنْـد الله ، وقد جاء في الحديث : (**مـا يـزال البلاء بـــــالمؤمن والمؤمنة ، في نفسه وولده ومالـه حتّى يلقى الله تَعـالى ، وما عليه خطيئة**) [1] .

ومن حكمة الابتلاء بالأمراض نيل العبد محبّة الله تعالى ، كما جاء في الحديث : (إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنّ اللـه تعـالى إذا أحبّ قومـاً ابتلاهم ، فمن رضي فلـه الرضا ، ومن سـخط فلـه السـخط) [2] .

ومن حكمة الابتلاء بالأمراض أن يتذكّرَ المـــــؤمنُ الموتَ والآخـــــرةَ ، ويعلمَ أنّ المرضَ مقدّمةُ الموت ، فيستعدّ للقاء الله بالجدّ والعمل الصالح .

فعلى الوالـــد والمـــربّي التأكيد على الطفل في كلّ مناسـبة أنّه لا يـأتي بـالنعَم إلاّ الله ، ولا يــــدفع النقم والبلاء إلاّ الله ،

1(?) ـ رواه الترمذيّ وقالَ : حديث حسن صحيْح .
2(?) ـ رواه الترمذيّ وقال : حديث حسن .

وتكـرار هـذه الآية الكريمة على سـمعه : وإذَا مَرِضتّ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) الشعراء ، وتعليمه الأدعية النبويّة المأثورة التي يدعو بها المريض ، عبوديّة لله تعالى ، واعتمـاداً عليه سبحانه .. وأنّ على المــؤمن أن يأخذ بأســباب الشــفاء من مراجعة الطــبيب ، وتنَاول الــدوَاء وأن يعتقد أنّ الشــفاء بيــد الله وحده ..

* نظرات أوّليّة في ثقافة الطفلِ .!

تشمل التربيةُ الإسلاميّةُ جسدَ الإنسانِ وعقلَه وروحَه ؛ وقدْ شَرع الله لكلّ جــانب من هذه الجوانب ما يصـلحه ، ويـرقى به ، ويســعده ، وأكثَــرُ ما شــرعه الله تعــالى لعباده جعل فيه حظّاً لكلّ جـانب من هـذه الجوانب ، لأنّ الإسـلام ينظر إلى الإنسـان كيانــاً واحــداً ، لا أجـزاءاً متفرّقة .. وتبقى بعد ذلك لكــلّ جــانبٍ خصوصــيّته ومطالبُه واحتياجاته .

وفيما يتعلّق بتربية عقل الإنسَـــــــان وفكــره ؛ فالإســلامُ يــربّي عقل الإنسَــان وفكـره بـالعلمِ النـافعِ ، والثقافـةِ المنبثقة عن عقيدَة الإسلامِ ومبادئه وقيمِه وآدابه .

وقبل أن نتحـــدّث عن ثقافة الطفـــلِ المســــــلمِ علينا أن نحـــــدّد مفهومنا عن الثقافة ، من خلال النظر اللغــــويّ ، وما ذكر منْ مفهوم عامّ عن الثقافة .

قـــال في المعجم الوســـيطِ : " ثقِف يثقَف وثقُف يثقُف ، صــار حاذقــاً فطنــاً ، والثقافة : العلومُ والمعارفُ والفنونُ الــتي يُطلب الحذق فيها " .

وعـــرّف مجمع اللغة الثقافة بقوله : " كــلّ ما فيه اســتنارة للــذهن ، أو تهــذيب

للذوق ، وتنمية لملكة النقد والحكم ، لـدى الفـــــــرد والمجتمع " ، وهو تعريف يغفل الخصوصـــيّة الفكريّة لكــــلّ أمّة ، ويجعل الثقافة أقرب إلى العلم أو أشبه به .

وعلى ضــوء التعريف اللغــويّ، وهــذا المفهـوم العـامّ للثقافة ، فإنّنا نَسـتطيع أنْ نَضـعَ تعريفـاً نرتضـيه للثقافة الإسـلاميّة ، نجعله مُرتَكَزاً لنا في هذه الكلمة ، فنقـولُ :

" الثقافة في تصوّرنا هي تربيةُ الفكر ، وتَقـويم السـلوك ، بـالقِيَم والمبـــــــادئ والآداب المنبثقة عن التصـوّر الإسـلاميّ لعلاقة الإنسـان بالله ، والكون ، والحياة ، والإنسـان " .

وأهمّ ما يلاحظ في هـــــذا التعريف أنّ الثقافة تجمع بين **العقيــدة والعبــادة ، و**العلم والعمل ، والفكر والســلوك ، ومن هنا فهي تزيد على الفكر الجانبَ السلوكيّ ، الــذي يتّصل بالتربية ، وتختلف عن العلم أنّها تعبّر عنْ هوّيّة الأمّة التي تتحــدّث عنهَا ، فلكلّ أمّةٍ ثقافتها ، الـتي تنبثق عن قيمها ومبادئها ، وتصوّرها عن الحياة وفلسـفتها ، أمّا العلم ؛ فمنْه ما يتّصل بثقافة الأمّة وهويّتها ، ومنه ما يكـــــون من العلــــوم

التجريبيّة الـــتي لا علاقـــةَ لها بثقافة الأمّة وهويّتها ، ومن ثمّ فهو إرث إنسانيّ مشــاع بينَ شــتّى أمم الأرض ، على اختلاف قيمها وعقائدها ..

كما يلاحظ في هـــــــــذا التعريف أنّ المحدّد الأساسيّ للثقافة الإسلاميّةِ ، يقوم على التصـــوّر الإســـلاميّ لعلاقة الإنســـان باللهِ ، والكون ، والحياة ، والإنسان .. وهو أيضاً المحدّد الأساســيّ لثقافة كــلّ مجتمع وأمّة ..

وانطلاقاً من تعريفنا للثقافة الإسلاميّةِ ، فـــإنّ ثقافـــةَ الطفل المســـلم تســـتَمدّ حقائقها من حقـــــائق الثقافة الإســــــلاميّة وخصائصها ، ولكنّها تمــتزج بها على حسب طبيعة المرحلة ، الـــــتي يمــــرّ بهَا الطفل ومتَطلّباتها .

وإذ ذكرنا في التعريف أنّ الثقافة **تقـــوم على تربية الفكر ، وتَقـــويم السلوك ،** فلابــدّ أن نشــيرَ هنا أنّ التربية في حقيقتها هي البنـــاء المتـــدرّج للثقافة ، القـــائم على الالـــتزام بمنهجيّة خَاصّـــة ، ومتَابعة دقيقة ، للإنســـان في كـــلّ مرحَلة يمرّ بها .

وإنّ واقع الطفل الثقــــــافيّ يتـــــأثّر بالدرجة الأولى ويعتمد على ثقافة من

يتلقّى عنه ، ومســــــتوى تكوينه ، إذ إنّ الطفل يتأثّر في مرحلة طفولته المبكّـرة ، وفي مرحلة نشــأته إلى بلوغه ونضــجه ، بمنْ يتلقّى عنه ، فما لم يكن الوَالد أو المربّي متمتّعاً بالصــفات الثقافيّة الإيجابيّة ، والمستوى الراقي ، فمن العبث الحـديث عن بناء ثقافيّ متميّز لطفلنا الواعدِ .

فعندما يكون المستوى الثقـافيّ للوَالد أو المربّي متدنّياً ضــعيفاً ، فإنه لن يتعامل مع الطفل بإيجابيّة ، ولن يكــون له أثر في نمو الطفل ، ورقيّه النفســيّ والمعــرفيّ ، بل ربّما كــان معوّقــاً لمواهبه ، ومــدمّراً لإبداعه ، وسبباً لإهدار إمكاناتِه وطاقاته ..

والأمّة الواعية لثقافتها ، المعــــــتزّة بهوّيّتها ، المخلصة لها توظّف كـلّ إمكاناتها وطاقاتها ، وتسخّر كـلّ أسـاليبها ووسـائلها لخدمة ثقافتها ، وتعميم قيمها في المجتمع ومفاهيمها ..

ـ ثمّ إنّ الثقافة الإسـلاميّة تقـوم على أصول كلّيّة ، هي مصادر ثقافتنا ومرجعها ، وفروع لا تَتعارض مع الكُلّيّـات والمصـادر ، بل تســـتمدّ منها ، وهي تتّصل بالحيــــاة العمليّة ، وما يحدث فيها من مستجدّات .

والأصـــــــول الكلّيّة العامّة **للثقافة الإسلاميّة** ، تشكّل أمصال المناعة ، التي لَو أحكِمَت في بنـــاء الأمّة لما اســتطاعت قوّة من قوى الأرض أن تخـترق حصـونها ، أو تعبث بمقدّراتها ..

أهمّيّة **الثقافة الإسلاميّة** لأطفالنا :

وتتجلّى أهمّيّة **الثقافة الإســــــلاميّة** لأطفالنا في جوانب عديدة أبرزها :

1 ـ أنّ الأمّة تعـــاني من الاخــــتراق الثقافيّ ، والغزو الفكريّ على كلّ مستوى ، وما لم تحصّن أجيالها الصـاعدة ، فلا أمل لها في نهضة أو رقيّ .

2 ـ وأنّ الاخـتراق الثقـافيّ ، والغـزو الفكـريّ هو أخطر سـبيل لإبقـاء الأمّة في مستنقع التخلّف والتبعيّة .

3 ـ أنّ **الثقافة الإسـلاميّة** الأصـيلة هي السـبيل للتحـرّر من العـادات والتقاليد الفاســدة ، والأوضـــاع الاجتماعيّة الدخيلة على قيم الإسـلام ومبادئه وآدابه ، وكثـيراً ما تلصق بالإســلام غفلة وجهلاً ، وتكــون مدخلاً لمحاربة الإسلام وتشويه صورته ..

4 ـ أنّ وسـائل الاخـتراق الثقـافيّ في هذا العصر قد تعدّدت وتنوّعت ، وتطــوّرت ، واســـتخدمت فيها أحــــدث التقنيّـــات والأساليب ، ممّا يحتّم على الغيـورين على

دين الله تعــالى أن يكونــوا على مســتوى العصر ، وأهلاً لإدارة الصــــراع ، ومواجهة التحدّي .

والنظرة **العامّة للثقافة الإسلاميّة** تقتضــينا الإشــارة إلى أهمّ **خصائصــها ،** الــتي هي من خصــائص الإســلام العامّة ، وتتجلّى في كلّ جانب من جوانب الحياة .

فمن أهمّ خصائص الثقافة الإسلاميّة :

1 ـ أنّها ربّانيّة المصــــدر والغاية : فمصــــدر الثقافة الإســـلاميّة هو الـــوحي المعصـوم ، من كتـاب الله تعـالى ، وسـنّة نبيّه ، والغاية الــتي يتطلّع إليها المســلم هي الفــوز بمرضــاة الله تعــالى ، ومن ثمّ فهو ينظر بثقة واطمئنان إلى كلّ ما يتلقّاه عن الكتاب والســـنّة ، لأنّه يتلقّــــاه عن المصـدر المعصـوم الـذي : لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .. ولا يســـعه أمــام أيّ أمر أو تكليف إلاّ أن يقــول : { **سَــــمِعنا وَأَطَعنا ، غُفرانَـــكَ رَبّنا ، وَإِليكَ المَصِيرُ** (285) } البقرة .

2 ـ أنّها تقوم على الاجتهـاد والحـوار : ومع ربّانيّة مصـــدر الثقافة الإســـلاميّة وأصـــولها وغايتها ، فـــإنّ من حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن ترك لهم مســاحة

واسـعة للاجتهـاد في الـدين ، فيما لم يـرد فيه نصّ خـــاصّ ، على ضــوء النصـــوص العامّة ، والقواعد الشـــرعيّة ، والكلّيّـــات والمقاصد ، وفتحُ الباب للاجتهـاد بشـروطه وضـوابطه ، يعـني التشـجيع على الحـوار حول كلّ قضيّة ، وبخاصّة من المسـتجدّات ، وفق منهجيّة شـرعيّة مضـبوطة ، لتبـادل الآراء ، وتفهّم وجهـــات النظر ، والأخذ بما هو أقـــرب إلى روح الشـــريعة ، ومقاصد الأحكام .

3 ـ ومن خصـائص الثقافة الإسـلاميّة : العــدل والتــوازن : فشــريعة الله تعــالى قـــامت على العـــدل في كبـــير الأمـــور وصـغيرها ، وفي كـلّ شــيء ، وهي تـأمر بالعـدل في كـلّ شـيء ، وبالعـدل قـامت السـموات والأرض ، والجنـوح عن العـدل والتوازن جور تأباه شريعة الله ، لأنّه يعـني تعطيل جـــوانب من دين الله تعـــالى ، مطلوبة مهمّة ..

4 ـ الواقعيّة الإيجابيّة : والثقافة الإســلاميّة تتّسم بالإيجابيّة الواقعيّة ، فهي تتعامل مع الواقع بإيجابيّة ، فلا تجنح إلى المثاليّة البعيــدة عن الواقع ، ولا تقف من

الواقع وقفة ســـــلبيّة ، فيتــــأبّى على الاستجابة لها ، وقبول إصلاحها ..
5 ـ العمليّة والتــــدرّج : والثقافة الإسلاميّة ثقافة عمليّة ، تقـوم على المنهج العمليّ الواقعيّ ، ولا تقتصر على التنظــير وطرح الشعارات ، شأن المناهج الوضـعيّة ، وهي تعــالج واقع الإنســان ومشــكلاته ، وتنهض به ، بتدرّج ورحمة ورفق ، فلا عنت فيها ولا إحــــراج ، وهي لا تفـــرض على الإنسان التغيير دفعة واحدة .
6 ـ ومن خصـائص الثقافة الإسـلاميّة : المرونة والتطوير : فهي تجمع بين الثبــات في الأصــــول والمبــــادئ ، والمرونة في الأســــاليب والوســــائل ، ولا تقف من المســـتجدّات وقفة الـــرفض ، ما لم تكن متعارضة مع الأصول والمبــادئ مجافية لها ، وتعـدّ الحكمة ضـالّة المـؤمن أنّى وجـدها فهو أحقّ بها .
هذه نظـرة مـوجزة عن أهمّ خصـائص الثقافة الإســلاميّة ، وهي مبثوثة في جميع نظم الشـــــريعة وأحكامها ، وينبغي على المـربّي أن لا يغفل عنها في تربيته للطفل والناشئ ، ورعايته له بشـــــــريعة الله وأحكامه .

* ماذا قدّمت لعقلِ طفلك .؟!

أيّها المربّي .! مالم تكن حريصاً على بناء عقلك ، فلن تســـهم في بنـــاء عقل طفلك ، وربّما وضـعت أمــام عقله كتلاً من الأشـــــــواك والمعوّقات .. فانظر في بنـاء عقلك أوّلاً .!

التفكيرـ عبادة أكـرم بهـا منْ عبـادة .! إذ هو روح كلّ عبـادة ، وهو السـبيل إلى بناء العقيـدة على أسـسٍ مكينة ، من منطق العقل ، وقـــوّة الحجّة ، ونَصـــاعة البيّنة ، يقـول الله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) ﴾ آل عمران .

وإنّ بناء العقـلِ على التفكـيرـ المنهجيّ السـليم مهمّة تربويّة معقّـدة شـاقّة .. قصارى ما يسـتطيع المبـدع أن يدّعيَه فيها أنّه يحـاول ويجتهد ، أن يخطو خطـوة في الطريق الصـحيح .. ويتجلّى تعقيـدها ومشـقّتها أنّ الناشئ والبـالغ الناضج تعترضه في تقلّبات الحياة الكثيرة مطبّـات

ومزالق ، تكشف له عن خلل في بنـــــاء عقله ، وطريقة اتّخاذ قراراته ، ممّا يـدعوه دائمـــاً إلى اكتشـــاف أخطائه ، ومراجعة نفسه ولومها ، وإعـــادة النظر في منطق معالجته للأمـــور ، ومنهجيّته فيما يتّخذ من قرارات ومواقف ..

وما لم تكن منهجيّة البنــــــاء العقليّ السـليم حاضـرة في يد الإنسـان في كـلّ موقف من مواقف حياته ، كما يســـتخدم الماشي في الظلماء النور الكاشف .. فإنّ مواقفـــه معرّضة لأن تخـــرج عن مـــوازين العقل الصحيحة ، وتتيه وراء أوهام الأهـواء والتحيّزات .

* وأهمّ معـــالم البنـــاء العقليّ للطفل تتجلّى في النقاط التالية :

1 ـ تعليم القراءة والتحبيب بها :

2 ـ تعليم المحاكمة العقليّة الصـحيحة ، ومنهجيّة تفسير المواقف واتّخاذ القـرارات :

3 ـ التـدريب على البحث ، واكتشـاف الحقيقة والمعلومة بنفسه :

1 ـ تعليم القـراءة والتحـبيب بها ، والسبيل إلى تحقيق ذلك :

* أهمّ أهداف القراءة :

ـ تنمية المهارات اللغويّة .

ـ تنمية مهارات التفكير .
ـ العلم والمعرفة .
ـ إثارة المواهب ، وتحفيز الإبداع .

القواعد الأساســـــــــيّة لتعليم القراءة والتحبيب بها :

أ ـ اقـرأ أمـام طفلك بصـوت مرتفع ، وتفاعل مع القراءة .

ب ـ قدّم له الكتاب أو القصّـة بتشـويق بالغ لموضوعها ، وتعريف مشوّق بمؤلّفها .

ج ـــ اجعل الـــبيت في أوقـــات معيّنة مكتبة عامّة ، وهيّئ الجوّ للقراءة الممتعة ، والبحث الجادّ .

2 ـ ويقوم **تعليم المحاكمة العقليّة الصـــــحيحة ، ومنهجيّة تفســـــير المواقف واتّخـــاذ القـــرارات** على النقاط التالية :

أ ـــ طـــرح الأســئلة على الطفل قبل إفادته بأيّة معلومة .

ب ـ تصدير الأسئلة المطروحة إليه .

ج ـ أن لا يقبـل كـلّ ما قـرأ قبل البحث والمناقشة ، والمحاكمة الصـحيحة ، بـدون غلوّ أو غرور .

3 ـ التـــــدريب على البحث ، واكتشـــــــاف الحقيقة والمعلومة بنفسه :

التفكـــــير نشــــاط عقليّ راقٍ ، يعين الإنســـانَ على فهم الواقع ، والتعامل معه

بإبـــداع وابتكـــار ، ويميّـــزه عن ســـائر المخلوقات .

وهو بمعنــاه العــامّ إمعــان النظر في الأشـــياء أو الموضـــوعات أو الظـــواهر للوصــول إلى الفهم أو الحكم ، أو تفســير الظواهر بصورة قطعيّة سديدة ، فهو يَقوم على إدراك طبيعة العلاقة بينَ الأشـــــياء وتأثيرها ببعضها ..

ـ **مراحل التفكــير** : تحتــلّ عمليّة التفكير منزلة كبيرة في النشاط الإنســانيّ ، وبوجه خـاصّ في المجـال الـتربويّ ، ممّا يؤكّد على الآبَاء والمـربّين ضـرورة تـدريب الطفل والناشئ على الالـــتزام بـــالمنهج العلميّ الموضوعيّ الصـحيح ، الـذي يقـوم على الملاحظة والمشَـــاهدة ، واكتشـــاف العلاقة الموضـوعيّة بيْن الأشـياء ، لتقـديم التفسير العلميّ الصحيح لها ..

وفي سبيل الوصول إلى النتائج العلميّة الصحيحة ، واكتشاف سنن الله في النفس والآفَـــاق ، فـــإنّ التفكـــير يجب أنْ يمـــرّ بالمراحل التالية :

1 ـ الشعور بالمشكلة وتحديدها :

2 ـ وَضع الفروض العلميّة لتفسيرهَا:

3 ـ اختبار صحّة الفروض :

4 ـ اعتماد الحلّ في الأمثلة المشابهَة : وهو ثمـرة التفكـير السـديد ، ويسـمّى عند علماء أصول الفقه : " القيَاس " .

وينبغي أنْ يقتصر دور الوالد والمـــربّي على تقـديم المُسـاعدة للطفل والناشئ ، ليمضي في الاتّجـاه الصـحيح للوصـول إلى التفكير العلميّ الموضوعيّ الصـحيح ، وأن لا يقـــوم عملهم بـــدور التلقين ، وتقـــديم المعلومـات الجـاهزة ، ممّا يغـري الطفل والناشئ بـــــــالخمول والكسل العقليّ ، والاعتماد على غـيره ، ليفكّر عنه ، ويقـدّم له الحلول في كلّ موقف ..

عادات العقل " الستّ عشرة :

1 ـ المثابرة .
2 ـ التحكّم بالتهوّر
3 ـ الإصغاء بتفهّم وتعاطف
4 ـ التفكير بمرونة
5 ـ التفكـير حـول التفكـير (فـوق معرفيّ)
6 ـ الكفاح من أجل الدقّة
7 ـ التساؤل وطرح المشكلات
8 ـ تطـبيق المعـارف الماضـية على أوضاع جديدة
9 ـ التفكير والتوصيل بوضوح ودقّة
10 ـ جمع البيانـاتِ باسـتعمَال جميع الحواسّ
11 ـ الخلق التصوّر الابتكار
12 ـ الاستجابة بدهشة ورهبة

13 ـ الإقدام على مخاطر مسئولة

14 ـ إيجاد الدعابة

15 ـ التفكير التبادليّ

16 ـ الاستعداد الدائم للتعلّم المستمرّ

فاســتخدم عقلك أيّها الإنســان !
ولا تعطّله ..

هذا والله تعالى أعلم
وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده
ونبيّه سيّدنا محمّد ،
وعلى آله وأصحابه أجمعين .
والحمد لله ربّ العالمين .

* صدر للمؤلّف *

1 ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربويّة وآثـاره .

2 ـ وجوب وحدة المسلمين .

3 ـ رسالة المعلّم وآداب العالم والمتعلّم .

4 ـ اعرف نبيّك محمّداً يا بنيّ .!

5 ـ ومضات من هدي النبيّ الخاتم .

6 ـ البيّنات في تفسير سورة الحجرات .

7 ـ المنهج القويم للداعية الحكيم .

8 ـ مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء .

9 ـ رسالتان في التربية .

10 ـ قصص وعـبر من لطـائف القـدر . المجموعة الأولى .

11 ـ قصص وعـبر من عجـائب القـدر . المجموعة الثانية .

12 ـ حديث القلب .

13 ـ النصائح الذهبيّة لتربية الأولاد ورعايتهم .

14 ـ قبسـات من نـور النبـوّة لصـاحبي الفضـيلة : الشـيخ أحمد عـزّ الـدين البيـانوني ، والشـيخ عبد الفتّـاح أبو غـدّة رحمهما الله تعـالى . بعناية د. عبد المجيد البيـانوني ، وفي ختامه رسـالة : " ومضـات من هدي النبيّ الخاتم " .

15 ـ تذكرة العابد بحقوق المساجد .

16 ـ أساليب تربويّة ومفاهيم دعويّة من حياة الشـيخ أحمد عزّ الدين البيانوني .

17ـ ركـائز دعويّة من هـدي النـبيّ في العلاقـات الاجتماعيّة .

18 ـ القول المبين في تفسير سورة : " يس " .

19 ـ لمحـات من حيـاة الشـيخ أحمد عـزّ الـدين البيانوني وتعريف بمؤلّفاته .

20 ـ مواقف تربويّة من هدي النبيّ مع الأطفال .

21 ـ خمس عشرة مهارة تجعلك مربّياً متميّزاً .

22 ـ خطوة خطوة نحو التربية الناجحة .

23 ـ أربع رسائل في التربية .

24 ـ لئلاّ تضيع الطفولة : ثلاثـون سـبباً تمنعك من الطلاق .!

25 ـ الغائب المنتظر

26 ـ ملامح السعادة في تربية الطفل على العبادة

27 ـ معالم تربويّة

28 ـ رفقاً بالقوارير!

29 ـ أيّها الأمير رسَالتَان فِي النُّصح وَالرِّعَايَة

30 ـ إنّها الأنثَى .! رؤى نقديّة حول دعوى التمييز ضدّ المرأة

31 ـ كيف تنعم أسرنا بالأمن .؟